

السنة الأولى - العدد رقم ٢ - ذو الحجة ١٤٢٨ هـ - يناير ٢٠٠٧ م

# الغرب أصل الصراع

عامر عبد المنعم



المركز العربي  
للدراسات الإنسانية

[ ٢ ]

سلسلة رؤى معاصرة

# الغرب أصل الصراع

عامر عبد المنعم

رئيس التحرير

د. باسم خفاجي

b.khafagy@arab-center.org

مدير التحرير

عامر عبد المنعم

aamermoneim@arab-center.org

المركز العربي للدراسات الإنسانية:

القاهرة - ١ شارع رفاعة متفرع من

الخليفة المأمون - مصر الجديدة

www.arab-center.org

mail: info@arab-center.org

هاتف: ٢٠٢ ٤٥٤٩٥٥٧

فاكس: ٢٠٢ ٤٥٤٩٥٥٧

نقال: ٢٠١٠٥١٢٥٩٥٦

رؤى معاصرة:

سلسلة دورية استراتيجية تهتم بتقديم رؤى استشرافية وبحثية لصناع القرار والمثقفين في العالم الإسلامي . يتركز اهتمام «رؤى معاصرة» في التحديات الفكرية والاستراتيجية والسياسية التي تواجه الأمة الإسلامية سواء على المستوى الداخلي، أو في علاقات الأمة مع الدول والشعوب غير المسلمة، أو على مستوى الرؤى الفكرية والحضارية الخاصة بمستقبل العالم الإسلامي.

مجالات الاهتمام:

تهتم «رؤى معاصرة» بمجموعة محددة من المشكلات والقضايا التي يمكن أن تنحصر في التالي:

\* تقديم دراسات تحليلية لقضايا واقعية ملحة تشغل اهتمام صانع القرار الإسلامي.

\* عرض حلول عملية لمشكلات معاصرة في مجالات الفكر والاستراتيجية والسياسة.

\* تعريف بقضايا أو مشكلات جديدة على ساحة العمل الإسلامي.

\* طرح رؤى جديدة متميزة وعملية حول بعض المشكلات والقضايا المعاصرة.

الموزعون:

مصر : المركز العربي للدراسات الإنسانية - القاهرة : ١ شارع رفاعة متفرع من الخليفة المأمون - مصر الجديدة - هاتف: ٤٥٤٩٥٥٧ فاكس: ٤٥٤٩٥٥٧

الإمارات العربية المتحدة: شركة الإمارات للطباعة والنشر، دبي ص. ب ٦٠٤٩٩، هاتف: ٣٩١٦٥٠١، فاكس ٢٦٦٦١٢٦.

سلطنة عمان: مؤسسة العطاء للتوزيع، ص. ب ٤٧٣ - العذبية ١٣٠ - هاتف: ٢٤٤٩١٣٩٩ - فاكس: ٢٤٤٩٣٢٠٠.

البحرين: مؤسسة الهلال للتوزيع الصحف - المنامة: ص. ب ٢٢٤ هاتف ٥٣٤٥٥٩ - ٥٣٤٥٦١، فاكس ٥٣١٢٨١.

السعودية: الشركة الوطنية للتوزيع: هاتف: ٤٨٧١٤١٤ - فاكس: ٤٨٧١٤٦٠.

السودان: الخرطوم، دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع، هاتف: ٧٩٣٢٨٣ - فاكس: ٧٩٣٢٨٤ - ص. ب ١١١٦٦ الخرطوم.

الأردن: الشركة الأردنية للتوزيع، عمان ص. ب ٣٧٥ هاتف: ٥٣٥٨٨٥٥ - فاكس: ٥٣٣٧٧٣٣.

قطر: دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع، الدوحة هاتف: ٤٥٥٧٨١٠ - ٤٥٥٧٨١٢ - ٤٥٥٧٨١٩ فاكس: ٤٥٥٧٨١٩.

الكويت: شركة المجموعة الكويتية للنشر والتوزيع: ص. ب: ٢٩١٢٦ - الكويت الرمز البريدي ١٣١٥٠ - هاتف ٢٤٠٥٣٢١ - ٢٤١٧٨١٠ - فاكس: ٢٤٧٨٠٩.

المغرب: سوشيرس للتوزيع، الدار البيضاء، ش جمال بن أحمد ص. ب ١٣٦٨٣ - هاتف ٤٠٠٢٢٣ - فاكس: ٢٤٦٢٤٩.

اليمن: دار القدس للنشر والتوزيع، صنعاء: ص. ب: ١١٧٧٦ الطريق الدائري الغربي أمام الجامعة القديمة، هاتف: ٢٠٦٤٦٧ - فاكس: ٤٠٥١٣٥.

## مقدمة

تعاني الأمة الإسلامية من حروب متواصلة، واجتياحات لا تتوقف من قِبَل الغرب. وأصبح الصدام والعداء هو الأصل في تعامل الغرب مع الإسلام. هذه العلاقة المختلة لم تستقم منذ غياب الخلافة الإسلامية، وحتى الآن. فالغرب يتوحد في اعتداءات متكررة ضد المسلمين، وفي المقابل تَسَبَّبَ التمزق والانقسام وغياب الوحدة الإسلامية في إضعاف العالم الإسلامي وخضوعه للهيمنة الغربية.

رفض الغرب كل المبادرات لإقامة علاقة متوازنة، وفشلت كل محاولات التعايش التي سعى إليها بعض المسلمين، بسبب تعيُّر ميزان القوة بين الجانبين. اختار الغربيون -دوماً- الحرب، أو التلويح بها كوسيلة مفضلة للسيطرة على الشعوب المسلمة، وارتكبوا كل الفظائع لاستمرار الهيمنة على الجسد الإسلامي الذي مزقوا وحدته، وقسموه عشرات الأجزاء.

استطاع الغرب أن يحقق أهدافه باستغلال نقاط الضعف في الأمة، عبر دراسة كل ما يتعلق بها بشكل دقيق، منذ ظهور الحكم الإسلامي وحتى الآن، وهذه المعرفة ساهمت في إدارة الغرب للصراع مع المسلمين بنجاح؛ لكونها بُنِيَتْ على علم ودراية. في المقابل فإن المسلمين - خاصة مع ضعف الدولة الإسلامية وانهيار الخلافة - لم يقوموا بدراسة الغرب دراسة حقيقية تساعد على وضع استراتيجيات قائمة على أسس واقعية وعلمية وشرعية لتوجيه الأمة نحو تصور شامل للمواجهة.

المتابع لتاريخ العلاقة بين الغرب والإسلام يجد أن دراسات الاستشراق وما قبلها من محاولات التعرف على العالم الإسلامي ليست مجرد مبادرات فكرية فردية معزولة ارتبطت بظروف تاريخية محددة، أو أنها توقفت عند مرحلة زمنية معينة، فهذا التوجه نحو اكتشافنا والوقوف على أدق التفاصيل في مجتمعاتنا مستمر حتى اليوم، وهو جزء من منظومة شاملة لمواجهةنا بأساليب متنوعة وتحت مسميات متعددة لمنع عودة الوحدة الإسلامية مرة أخرى. أجيال تسلم أجيالاً؛ كل هدفها عدم قيام دولة المسلمين.

ومن أجل استمرار الهيمنة يوجد في الغرب وفي بلادنا آلاف المراكز والهيئات الحكومية وغير الحكومية لدراسة العالم الإسلامي، ولم تتوقف طوابير الباحثين والخبراء عن التدفق على المدن والقرى لتشيئنا، ودراسة كل ما يتعلق بالإنسان المسلم والمجتمعات

الإسلامية. إنهم يتعاملون معنا بناء على خطط مرسومة وموضوعة سلفاً، قائمة على قواعد بيانات تم جمعها عبر مئات السنين.

إن المسلمين -بسبب الفرقة، ولغياب الرأس الواحدة- لم يجتمعوا على أسباب الخل في العلاقة بين الجانبين. فإذا سألت عشرة أشخاص في أي دولة سؤالاً واحداً، عن سبب الحروب التي يشنها الغرب على المسلمين، ستكون هناك عشر إجابات وليست إجابة واحدة، وستجد أشخاصاً لهم توجه فكري واحد يختلفون في التشخيص، بل ستجد من يرى أن المسلمين هم الطرف المدان والجاني وليس الدائن والمجني عليه، رغم ما يفعل بهم من قتل وإبادة.

لقد أوجد غياب الدراسات والبحوث عن الغرب فراغاً، أعطى فرصة للمناوئين للأمة كي يضحوا أكاذيب وآراء مغلوطة، تقود في المجمل لتحسين صورة الغرب وتجميله وإظهاره على غير صورته العدائية.

من هنا فإن هذا البحث يتناول الأسباب الحقيقية التي تدفع الغرب دوماً للعدوان وشن الحروب واللجوء إلى مصارعة خصومه وإبادتهم. ويخوض هذا البحث في الخلفية التاريخية والفكرية لهذه النزعة العدائية للغرب، ومعرفة مصادر هذا الشحن المحب لتدمير الآخرين، والذي جعل نزعة العدوان الغربية أكبر خطر يهدد البشرية.

تؤكد دراسة التاريخ أنه لا توجد حضارة سعت إلى إفناء واستئصال الحضارات الأخرى مثلما فعلت الحضارة الغربية. فقد جعلت فكرة الصراع الغرب في مواجهة مستمرة مع باقي شعوب الأرض، وفي خصام دائم مع الكون. وتطورت فكرة الصراع عبر تاريخ الغرب، وأخذت أبعاداً مختلفة وفق كل نقلة حضارية. تلونت هذه الفكرة بألوان عديدة من المشروعية عبر ثلاث مراحل مختلفة. لعبت كل مرحلة دوراً في إعطاء المرجعية لهذه النزعة الصدامية. فقد أعطت الحضارة الإغريقية، وهي أقدم حضارة أوروبية بعداً فكرياً للصراع وتأصيله، ثم جاءت الحضارة الرومانية لتضفي المشروعية السياسية للصدام مع الآخر والقضاء عليه، ثم منحت المسيحية الغربية التي اعتنقها الرومان وتوارثها الغربيون بعد ذلك مرجعية أخلاقية لهذه الروح، وإعطاء المبادأة بالعدوان صفة العدالة فيما عُرف بنظرية «الحرب العادلة» التي أثرت في الحضارة الغربية الحديثة وكانت وراء فكر الإبادة.

يتناول هذا البحث الدور الذي لعبه حب الصراع في تشكيل الفكر الغربي، ويتتبع هذه الفكرة الصدامية منذ نشوء الحضارة على أرض أوروبا، وكيف كانت مكوناً أساسياً في الفكر والوجدان الغربي منذ القدم وحتى اليوم.

يركز البحث على علاقة الغرب مع الإسلام منذ البدايات الأولى للدولة التي أقامها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ويستعرض حروب الغرب مع المسلمين، والتي أخذت ثلاثة أشكال متنوعة عبر التاريخ المعاصر، وهي الحروب الصليبية ثم الاستعمارية، وأخيراً الحروب الاستباقية.

يوضح البحث أن تصدير الغرب للدمار في حروب ضد شعوب العالم قد وُلد الكراهية وردود أفعال انتقامية مصحوبة بتوسع حركة الجهاد في العالم الإسلامي، وتشكيل كيانات مضادة أوقعت خسائر في جيوش الغرب، فاقت توقعات الغربيين أنفسهم. وستدفع حركة المقاومة المضادة الغرب إلى التفكير في التراجع والتقهقر بعد فشل ترسانتهم العسكرية في كسر «الإرادة» الإسلامية الصاعدة، والتي ساهم العدوان الغربي في نموها واشتداد عودها وإحياء عقيدة الجهاد. والجهاد - كما هو معلوم - فريضة إسلامية؛ وهو ينقسم إلى قسمين: جهاد الدفع، وجهاد الطلب. جهاد الدفع لرد العدوان، وجهاد الطلب لإزاحة العراقيل التي تمنع توصيل الإسلام إلى الشعوب ولنشر الدعوة.

يدور البحث على ثمانية محاور:

الأول: الغرب وفكرة الصراع، وهو قراءة تاريخية لروح الصراع في الحضارات الأوروبية، القديمة والوسيلة والحديثة. ودور الفهم الغربي في تطويع المسيحية لخدمة الصراع.

الثاني: التعارك مع الأصدقاء واستنزاف الذات، وهذا المحور يوضح تأثير الصراع على الأوروبيين في تعاملهم مع بعضهم البعض، وتسببه في حروب دموية لم يحدث مثلها في منطقة أخرى من العالم.

الثالث: انتقال عقلية الصراع إلى العالم الجديد (الأمريكتين)، وفيه توضيح لتطور فكرة الصراع إلى أشكال أكثر عدائية مثل الرغبة في الإبادة والقضاء على الآخرين.

الرابع: المستقبل وسيادة فكرة الصراع، وهذا المحور يلقي الضوء على التفكير السوداوي في رؤية الغرب للمستقبل؛ إذ يعتقد الغربيون أنه سيشهد حروباً كونية وصدامات تستخدم فيها أشد الأسلحة فتكاً.

**الخامس :** العلاقة مع الإسلام، وهو يوضح أن الغرب هو الذي بدأ الصدام مع ظهور النبي صلى الله عليه وسلم، وإعلان العداوة للدين الجديد منذ اليوم الأول.

**السادس:** الغرب وتصدير الصراع، يتناول هذا المحور الحروب التي شنتها الغرب ضد المسلمين والعالم، وما سببته من إشاعة العداوات وتهديد الأمن في العالم.

**السابع :** حصد الكراهية وظاهرة الانتحار، يبين هذا المحور نتيجة حروب الغرب ضد المسلمين والعالم، ودورها في شيوع الكراهية للغرب؛ مما ساهم في تقوية رد الفعل المقاوم الذي بدأ يتسع ويخرج عن نطاق السيطرة الغربية.

**الثامن:** الغرب ومرض الصراع، يشخص هذا المحور الداء ويقف على حقيقة مرض الغرب ويطرح بعض الحلول للعلاج.

أهمية هذا البحث أنه يلقي الضوء على روح الصدام والصراع في العقلية الغربية. وتوضيح أن الغرب لا يعرف الحوار المتكافئ ويميل إلى الصدام والحرب، بدافع من عقيدته وحضارته التي على الرغم من كل ما أنتجته من إنجازات مادية وتقنية؛ فإن القتل وتدمير الآخرين يُعتبر مكوناً أساسياً في نسيجها ومحركاً نشطاً لاعتداءاتها التي لم تتوقف.

يصل البحث إلى نتيجة مفادها أن الغرب كيان يعاني من مرض الصراع مع الآخر، ويحتاج إلى علاج يحمي البشرية من شرور هذا المرض. ولن يُجدي الحوار مع الغرب في ظل اختلال توازن القوة الحالي وانفراذه بقيادة العالم والسيطرة على مقدراته.

وعندما نتحدث عن الصراع فإننا نقصد به العدوانية والرغبة في إيذاء الآخرين، والسعي للسيطرة عليهم وإبادتهم؛ إن كان ذلك ممكناً.

ثمة ملاحظة نود الإشارة إليها، ونحن نتناول فكرة الصراع عند الغرب، وهي أننا نرصد الفكر الغربي بشكل عام بغض النظر عن الأشخاص. فإن ما نركز عليه هو السلوك الجمعي الغربي، وليس الآراء الفردية التي ربما تتأثر بفكرة الصراع بدرجات متفاوتة، وربما تكون إيجابية في بعض القضايا، وتختلف من شخص لآخر، ومن منطقة لأخرى، ومن وقت لآخر.

المنهج الذي نراه في التعامل مع غير المسلمين أنهم ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ [آل عمران: ١١٣]. ليس المقصود هنا مدح طائفة من أهل الكتاب على حساب طائفة أخرى، ولكن العدل في التعامل معهم يقتضي أن نفرق بينهم، وأنه لا تزر وازرة وزر أخرى، ولا نحمل بعضهم خطأ



الكثيرين منهم، نعم قد يكون بعض الغربيين لا يكونون لنا العداء، إلا أن الغالب منهم مُعادٍ للإسلام.

عند دراسة الغرب نكتشف أن العداء للإسلام هو الأصل عند الغربيين حكماً ومحكوماً، فالأحداث لا تكشف عن وجود تباين واضح بين الحكومات المحاربة للإسلام وبين شعوبها. فهذه الحكومات التي تغزو بلاد الإسلام، وتحتل أكثر من بلد إسلامي جاءت عبر صناديق الانتخابات وبتأييد شعبي، ولو كان ثمة رفض لسياسة الحكام لكان قد ظهر بسحب الشعوب للثقة من هذه الحكومات.

لم يعد خافياً أن استطلاعات الرأي التي تُجرى بشكل دوري في الدول الرئيسية التي تقود الحروب ضد المسلمين تؤكد موافقة غالبية هذه الشعوب لحكوماتها في سياساتها العدوانية تجاه الإسلام؛ بل تبدو الشعوب الغربية أشدّ عداوة من حكوماتها في بعض الأحيان، كما تمثل هذا في الدنمارك والدول الاسكندنافية عقب أزمة الرسوم المسيئة للرسول محمد صلى الله عليه وسلم.

ومع ذلك فإن الغرب بالنسبة لنا «جزء من أمة الدعوة، فقد عُلم من دين الإسلام بالضرورة عموم بعثته صلى الله عليه وسلم، فهو رحمة الله إلى العالمين، ورسوله إلى الناس أجمعين، الغرب والشرق في ذلك سواء، ولهذا شاع في المصطلحات الإسلامية تعابير: أمة الدعوة وأمة الإجابة، أمة الدعوة هي العالم بأسره، وأمة الإجابة هم من آمن به صلى الله عليه وسلم، واتبع النور الذي أنزل معه، وللغرب في هذه المنظومة من الخصوصية ما ليس لغيرهم من بقية هذه الأمة، فجذورهم ترجع في الجملة إلى أهل الكتاب، ولأهل الكتاب من الخصوصية ما ليس لغيرهم»<sup>(١)</sup>.

## أولاً: الغرب وفكرة الصراع

كان البعد الإنساني هو العامل المشترك بين كثير من الحضارات، إلا أن الحضارات الأوروبية كانت مختلفة، لها لون خاص بها، تقوم على فكرة الصراع والصدام مع الآخرين، ولا يوجد فرق كبير بين حضارات الغرب القديمة والحديثة. لقد أثرت هذه الروح على العقل الأوروبي، وأعطته سمة تجنح للصدام والميل إلى العدوان في إدارة شؤونه وتعامله مع الجميع.



إن ما نراه من قسوة وعدوانية في تعامل الغرب مع العالم ليس إلا نتاج حضارات غرست في التربة الأوروبية ثم الأمريكية روحاً محبة للصدام، رفعت من شأن المخالفة والمواجهة على حساب التعايش والتسامح. إذا نظرنا إلى الحضارات الأوروبية، الإغريقية القديمة والحضارة الرومانية ثم الحضارة الغربية الحديثة نكتشف أنها حضارات محاربة في الأساس، جوهرها الصراع ونفي الآخرين.

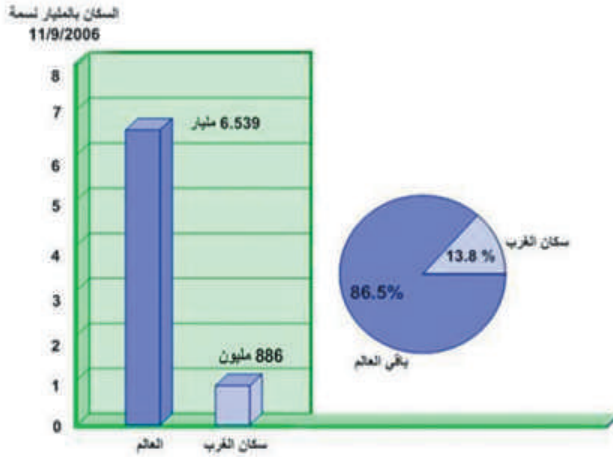
يتبين باستعراض الحضارات الأوروبية أن الصراع مع الآخرين هو الفكرة المحورية والقاسم المشترك بين الماضي والحاضر. فقد أكدت أساطير الإغريق أصحاب أقدم حضارة أوروبية أن الصراع كان هو شغلهم الشاغل، وكأنهم لا يعرفون غير القتال والتعارك، وحتى عندما تحدثوا عن الحب كان عن خطف زوجة أحد الملوك، والذي ترتبت عليه حرب طروادة الشهيرة.

التراث الإغريقي قائم على الخصام والصدام والكراهية. لا يُكِنُّ زفس - رب الأرباب حسب زعمهم - الوفاء والحب لزوجته، والزوجة لا تثق في زوجها، وكلاهما لم يتفقا على أمر، ويخشى كل منهما الآخر، وانقسما في تأييد المتقاتلين، الإغريق والطرواد. وتبدو الآلهة الإغريقية وكأنها في غرف عمليات عسكرية تحرك الجيوش على الأرض كقطع الشطرنج، وتتدخل هذه الآلهة في حالة انتصار جيش على آخر!

مع أفول نجم الإغريق وظهور الرومان تطورت فكرة الصراع إلى الأسوأ؛ إذ قامت الحضارة الرومانية على التوسع والسيطرة على الشعوب الأخرى. كانت الإمبراطورية الرومانية أول من اخترع فكرة الاستعمار. شنوا الحروب وقامت إمبراطوريتهم على استعباد الشعوب الأخرى وحكمها بالقوة والقهر. اشتهر عنهم الظلم والاضطهاد للأمم الأخرى. كانت الإبادة من صنع الرومان أيضاً؛ إذ كانت «المعادلة الرومانية: (أجنبي = بربرياً) تبرر إبادة غيرهم من الشعوب».<sup>(٢)</sup>

لم تختلف الحضارة الغربية الحديثة عن تلك التي قبلها، بل ازدادت وحشية، وساقها حب الصراع إلى الدخول في أعنف حروب يشهدها تاريخ البشرية. وكان نزول الرجل الأبيض إلى أرض الأمريكتين بدايةً لأكبر مذبحة ضد الإنسانية حيث أبيت أمم وشعوب من الهنود الحمر، ولا يزال العالم يئن من حروب الغرب المتواصلة حتى اليوم.

## رسم بياني: سكان الغرب وسكان العالم



المصدر: تم تجميع إحصاءات السكان من <http://www.geohive.com> ، والغرب هنا يشمل دول أوروبا وأمريكا وكندا وأستراليا ونيوزيلندا، مع ملاحظة أن الأرقام تشمل كل من يعيشون في الغرب بما فيهم أصحاب الديانات الأخرى غير المسيحية. توضح الإحصائية أن الغرب الذي يهيمن على العالم لا يزيد عن ٥, ١٣٪ من سكان الكرة الأرضية.

## ١ - الإغريق وصراع الأرض والسماء:

نشأت حضارة الإغريق التي تعد أصل الحضارة الأوروبية منذ ما يقرب من ٣٠٠٠ سنة على فكرة الصراع. ومن يقرأ «الإلياذة» و«الأوديسا» يعيش في جو من الأساطير والخرافات القائمة على تصارع الآلهة الأرباب المزعومة وانقسامهم إلى فريقين: جزء منهم مع الإغريق والآخر مع الطرود. وتتدخل الآلهة دائماً في سير المعارك! ساهمت الأساطير الإغريقية بشكل كبير في غرس روح الصراع في الثقافة الغربية. تروي هذه الأساطير أن حرب طروادة حول مدينة إليون عام ١٢٠٠ أو ١١٠٠ قبل الميلاد دامت عشر سنين. و«سبب هذه الحرب حسب الأسطورة هوسبي فارييس ابن ملك إليون لهيلانة زوجة ملك

الإخائيين.. وقد حمل فارييس هيلانة إلى إليون ورفض الطرواديون إرجاعها». (٣)

يحكي التراث الإغريقي أنه ومع اندلاع هذه الحرب «ثار بين الآلهة خصام عنيف، فقد انقسم بعضهم على بعض، وراحوا يتصادمون تصادماً تردد صدها في فسيح الأرجاء. ورنّ في السماء صوت كنفخ الصور، وسمع هذا زفس وهو جالس في الأولمب فسّر لرؤية الآلهة يشتركون في القتال». (٤) ولما كان اليوم التالي دعا زفس الآلهة إلى مجلس يعقد في أعالي ذرى الأولمب، وخاطبهم قائلاً: «إنني أهيب بكل رب وربة إلى الإصغاء، فلا تذهبن الجراءة بأحدكم إلى غير ما أمركم به، وكل من يسعى منكم إلى نصرة أي الفريقين من الإغريق أو الطرواد، فسأضربه بصاعقة، أو ألقي به في مهاوي ظلمات طرطروس، بأبوابها الحديدية، وعتباتها البرونزية، ليعلم أنني الزعيم بين الأرباب». (٥)

لكن زفس يريد أن يكون هو وحده المسئول عن إدارة الحرب وإبعاد الآلهة الآخرين، فهو متعاطف مع الطرواد بينما زوجته هيرا تساند الإغريق. يقول زفس في حوار ومناقشة مع زوجته حول الحرب: «حذار أن يولد هذا شقاقاً بيني وبينك، واذكري قولتي: إذا رُمْتُ يوماً أن أهدم مدينة أحببتها، فليس لك بعد اليوم أن تعارضي، أو تعيقي سبيلي... إنني أحببت طروادة المقدسة من بين ما تحت النجوم من مدن العالم... فهي لم تتوان عن تقديم الضحايا لمذبحي». (٦) وكان رد هيرا: «إن لي من المدن ثلاثاً قد خصصتها بحبي، وهي أرغوس وإسبارطة وميكينا فخربها جميعاً إذا ما أزعجك أمرها». (٧)

تروي الأساطير الإغريقية كذلك قصصاً عجيبة عن تصارع الآلهة واعتداء بعضهم على بعض وسب بعضهم لبعض. وتوضح هذه القصص أن الكراهية هي الأصل، وأن الصراع هو أسلوب التعامل، وتختفي في هذه الأساطير قيم المحبة والمودة. فقد «بدأ أرس خارق التروس، فهجم على أثينا، يحمل رمحه بيده صائحاً: لم تجعلين الآلهة يختصمون في القتال؟ أنت يا من لك وقاحة الذباب وصفاقة الكلاب؟ ألا تذكرين يوم حرضت ذيوميذ بن ثيديوس عليّ ليجرحني؟ وكيف أخذت برمحه في يدك لكي يراه الجميع، وصوبته إلى فخذي؟». (٨)

وفي موضع آخر «وضعت هيرا يدها اليسرى على أرطيميس وأخذت بمعصمها وسلبت منها قوسها وسلاحها، وضربتها فيما حول أذنها، وقد بسمت قليلاً، وهي ذاهبة، وسقطت السهام من الجعبة، وهربت الإلهة تاركة قوسها، كما تهرب ورقاء أمام صقر، لاجئة إلى

وكرها بين الصخور».<sup>(٩)</sup> وفي موضع ثالث خاطب الإله هرمس لاطونة قائلاً: «لن أقاتلك يا لاطونة، فإنه لمن أشق الأمور خصام من يختصهم زفس بحبه. فتبجحي ما تشائين أمام الآلهة الخالدين بأنك قد نلت عليّ في القتال ظفراً».<sup>(١٠)</sup>

أثرت هذه الأساطير في الفنون الغربية على مر التاريخ، وكانت تلك الفنون مصدر إلهام للأدباء والشعراء والمفكرين الذين قاموا بدورهم بإضفاء هالة من القداسة عليها، وأصبح هذا التراث القديم المعين هو الذي يستلهم منه الأوروبيون الكثير من الأفكار والسلوكيات في مجالات شتى.

هذه الأساطير في الحضارة القديمة توضح أن فكرة الصراع لها جذورها المغروسة في التربة الغربية، وأنها غالبية على ما عداها من قيم.

## ٢- الرومان وعقيدة الصراع:

بعد انحسار التأثير الحضاري للإغريق، ظهر الرومان. وتعتبر الإمبراطورية الرومانية من أكثر الإمبراطوريات التي لعبت دوراً هاماً في التاريخ الأوروبي، وكان لها تأثيرها على العالم. كانت هذه الإمبراطورية أول من بدأ الحروب الاستباقية والتوسع على حساب باقي الشعوب. كانت القوة العسكرية وراء الاندفاع والسيطرة على مساحات شاسعة حول البحر المتوسط شمالاً وجنوباً وشرقاً. و«تعدّ الإمبراطورية الرومانية أكبر دولة استعمارية في التاريخ القديم، فقد بدأت روما توسّعها فيما وراء البحار نحو عام ٢٦٤ ق.م. وفي أوج مجدها، كانت الإمبراطورية الرومانية تمتد من شمالي بريطانيا إلى البحر الأحمر والخليج العربي».<sup>(١١)</sup>

و«تزايد احتكاك الرومان بالأفكار الإغريقية خلال القرن الرابع قبل الميلاد. ومن ثم أخذوا يعبدون الآلهة الإغريقية، وأعطوها أسماء رومانية وبنوا معابد ومزارات لتكريمها. وقد سيطرت الحكومة على الدين، وكان الكهنة موظفين حكوميين، إما بالانتخاب أو بالتعيين، يقومون بالطقوس العامة التي كانوا يرون أنهم يكسبون بها عطف آلهتهم على الدولة. عانى النصراني اضطهاداً كبيراً في بداية القرن الثالث الميلادي؛ لاتهم الرومان لهم بأنهم أساس كل المصائب الواقعة بهم آنذاك؛ لكفرهم بآلهة الرومان. وفي ٣٠٣ م حظر ديوكليشيان النصرانية. وفي ٣٦١ م حاول الإمبراطور جوليان كبح انتشار النصرانية وإعادة

الديانة الرومانية التقليدية». (١٢)

اضطهد الرومان المسيحيين فترات طويلة، وعندما اعتنق الرومان النصرانية حدث تحول في المسيحية الغربية. إذ تغيرت الديانة التي كانت في أصلها داعية للسلام إلى ديانة تبرر العدوان وتمنح المبرر الأخلاقي للحرب الاستباقية. فقد استطاع القديس أوغسطين أن يدمج بين السلطة المهيمنة والدين في القرن الخامس الميلادي، وأعطى الحق للإمبراطور في شن الحرب بدعوى تحقيق السلام وأطلق مصطلح «الحرب العادلة» الذي أصبح فيما بعد الدافع وراء حروب الغرب تجاه العالم، من يومها وحتى الآن.

وباسم هذه العدالة «المقاتلة» تعرضت أمم وشعوب عديدة للقتل والإبادة.

و«مع ذلك أخذت الإمبراطورية الرومانية الغربية تضعف بشكل مطرد، فقد هاجم الواندال، والقوط الغربيون، وشعوب جرمانية أخرى، كلاً من أسبانيا

والغال وشمالي إفريقيا. ويؤرخ سقوط الإمبراطورية الرومانية غالباً بسنة ٤٧٦ م. حيث عَزَل، في تلك السنة الزعيم الجرمانى أدواسر آخر حاكم للإمبراطورية الرومانية الغربية، وهو رومولوس أوغستولوس، عن العرش. وكان الزعماء الجرمان قد بدءوا قبل ذلك بتقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى ممالك عديدة. وظلت الإمبراطورية الرومانية الشرقية باقية وممثلة للإمبراطورية البيزنطية، حتى استولى الأتراك العثمانيون على القسطنطينية في سنة ١٤٥٣ م». (١٣)

### ٣ - الصراع والمسيحية المحرفة:

كان لاعتناق الرومان النصرانية تأثيره في عسكرة المسيحية الغربية، وإحداث تحول كبير في الديانة من المسالمة إلى تسويغ شن الحرب. واجهت الرومان في البداية مشكلة التزام الشعوب المنتصرة حرفياً بتعاليم النصرانية الداعية للسلام والكارهة للحرب، وعدم تقبل المسيحيين لفكرة القتال. «لذلك كان طبيعياً أن يرفض الرومانيون الذين دخلوا في المسيحية في المراحل الأولى أن يقوموا بأداء الخدمة العسكرية في روما، أو أن ينخرطوا

غَيَّرَ الرومان المسيحية التي كانت في أصلها داعية للسلام إلى ديانة تبرر العدوان وتمنح المبرر الأخلاقي لشن الحروب

في الجيش الروماني، أو أن يشتركوا في الحروب التي كانت تشنها الإمبراطورية الرومانية. وعلى إثر ذلك قام صراع عنيف بين دعاة المسيحية المسالمة ورجال الحكم في روما. وكان هذا الصراع في الحق صراعاً بين الروحية والمادية» (١٤).

لم يكن سهلاً أن يتراجع رجال الدين عن معتقداتهم أمام ضغوط الأباطرة الرومان، خاصة مع الفصل الذي كان موجوداً بين السلطة والكنيسة، ومع شيوع قيم الزهد والروحانية. لكن مع الوقت بدأ رجال الدين المسيحي يتقهقرون، وأخرج القديس إيزيدور والقديس امبروار بعض النظريات في هذا الشأن، على أن الداعية الذي كان له الأثر الحاسم في إيجاد هذا التوفيق هو القديس أوغسطين الذي أخرج في هذا الشأن مؤلفين أولهما هو «العقيدة المخالفة»، والثاني هو «مدينة الرب».

جاء هذا الانقلاب من ديانة متسامحة إلى ديانة محاربة نتيجة رغبة من السلطة السياسية للإمبراطورية، واجتهاد من الكنيسة التي رأت في الحرب وسيلة لإقامة مملكة الرب في الأرض. كان تطابق تأييد الكنيسة للحرب ورغبة رجال الحكم له أثره في ترسيخ استخدام القوة العسكرية لفرض الهيمنة، وربط هذا التوجه بالعقيدة الدينية.

ويبدو واضحاً لمن يتفحص مؤلفي القديس أوغسطين أنه دعا المسيحيين إلى التخلي نهائياً عن فكرة المسالمة التي قام على دعائها الدين المسيحي. قام هذا القديس في مؤلفه الأول «بتسويق فكرة الحرب وفق الحجج التالية: أن الحرب هي عمل من أعمال القضاء العادل المنتقم. فهي تقوم لإنزال العقاب بالعدل، ومن ثم فليس هناك ظلم يقع من جانب من يقوم بالحرب العادلة. أن الحرب هي لصالح المنهزمين؛ لأنها ترجع بهم إلى حال السعادة في السلام. أن الحروب تقوم من أجل ضمان السلام» (١٥).

وقد أثبتت وقائع التاريخ أن العدالة لم تتحقق قط في أي حرب شنها الغرب، وكان الظلم هو الأصل. وكانت حروبهم ضد غيرهم أو ضد بعضهم البعض أمثلة واضحة على حب العدوان والكرهية ومعاداة الإنسانية.

كان للقديس أوغسطين القدرة على التجرد وكسر التعاليم وتقديم صفة جديدة دمجت بين النقيضين: السلطة والكنيسة. كانت شخصيته القوية ومكانته الدينية دافعاً لتقديم مفهوم جديد للمسيحية يخالف ما توارثه النصارى عبر قرون.

اللافت للنظر أن ما طرحه أوغسطين -خضوعاً لرغبة الحكام الرومان- لم يلق معارضة

كبيرة من رجال الدين. ويبدو أن هذه النقلة الجوهرية قد لاقت القبول تحت ضغط الهجمات التي تعرضت لها الإمبراطورية «فقد هاجم الواندال، والقوط الغربيون، وشعوب جرمانية أخرى، كلاً من أسبانيا والغال وشمالي إفريقيا. ونهب القوط الغربيون مدينة روما سنة ٤١٠م». (١٦)

ومنذ صك مصطلح «الحرب العادلة» بات الغرب يجد المشروعية الزائفة في شن الحرب وتبرير العدوان، لهذا اجتهد قادة ومنظرو الغرب عبر العصور لتقديم تصورات للحرب العادلة ووضع شروط لها؛ لإعطاء أبعاد إنسانية ومشروعية تبرر الانخراط فيها. «يذكر جون فيرجسون في تلخيصه لعناصر نظرية الحرب العادلة كما ظهرت في المسيحية ثمانية عناصر هي: الحرب العادلة هي الحرب المعلنة من قبل السلطة الصحيحة. يجب أن تكون القضية عادلة. يجب أن يكون الهدف زيادة الخير وتقليص الشر. يجب خوض الحرب بالوسائل المناسبة. يجب أن تكون ضد المذنبين وليس الأبرياء. يجب ألا يعاني الأبرياء من ويلات الحرب أكثر من اللازم. يجب أن تكون الحرب هي الملجأ الأخير بعد فشل جميع الإجراءات الأخرى. يجب أن تكون هناك فرصة معقولة لتحقيق النجاح. ويوضح فيرجسون أن تأييد المسيحية لرؤية الحرب العادلة، تحل محل الرؤية المستمدة من الفلسفة الإغريقية والقانون الروماني». (١٧)

لكن الحكومات الأوروبية لم تنظر إلى هذه الشروط قبل شن الحروب. كما أن الشروط لم تتحقق في حروب الغرب، فكل الحروب التي أشعلها الغربيون اعتبرت عادلة! وباسم العدالة تقاتل الغربيون أنفسهم وأراقوا دماء بعضهم البعض. وكل من بدأ الحرب سَوَّغ لنفسه وصوَّر لشعبه أن حربه عادلة. و«من الحروب المقدسة إلى الحروب العادلة، يبين التاريخ أن المحاربين الأكثر استعداداً لادعاء الانتساب إلى قضية سامية هم غالباً المسؤولون عن اقتراف أسوأ التجاوزات، هكذا روى مدونو الوقائع -من دون أن يرمش لهم جفن- المذابح التي دسَّس بها الصليبيون نصرهم عند الاستيلاء على القدس. وعبر أوروبا كلها خلفت الحروب الدينية ثم حرب الثلاثين عاماً جرائم مهولة، تركت لنا منحوتات جاك جالو Jaqu Gallot صورة مروعة عنها، بينما عكف عدد لا يُحصى من رجال اللاهوت على كلا الجانبين على تبريرها باسم الإنجيل. بيد أن أهوال القرون الماضية تبهت بالمقارنة بالمذابح والجرائم التي قادت إليها الحروب الصليبية الأيديولوجية للقرن العشرين: الحرب الأهلية الروسية



وحرب أسبانيا والحرب العالمية الثانية». (١٨)

ثمة حقيقة جديرة بالتذكير متعلقة بموقف الرومان من الآخرين، فهم أول من سن نهج إقصاء الآخرين والقضاء عليهم؛ إذ كانوا لا يعترفون بحق الآخرين في الاختلاف معهم ولم يعرفوا قيم التعايش مع مخالفينهم. و«حين كانت الإمبراطورية الرومانية في حالة صعود، جاء المسيح عيسى عليه السلام، وبمجرد ظهور المسيح تمت معاملته كآخر.. فقد قام الرومان باتباع سياسة التمييز العنصري ضد أتباع المسيح وعذبوهم؛ لكونهم الآخر.. وفي القرن الرابع، اعتنق الإمبراطور قسطنطين، ومن تبعه من الأباطرة الرومان المسيحية وجعلوا منها ديانة الدولة. وبعد أن أصبح للمسيحية نفوذ، أصبح كل من اليهود والمؤمنين بالديانة العامة الرومانية القديمة يمثل الآخر. لقد عوقبوا وعذبوا واضطهدوا بسبب ديانتهم.. قاموا بإرهاب المواطنين الرومان الذين مارسوا ديانتهم العامة.. كان يتم التمييز ضد غير المسيحيين بشكل صريح وعلمي. لقد فرضت عليهم الغرامات طبقاً لقوانين غير عادلة، وتعرضوا للسجن وللتعذيب والإعدام أيضاً». (١٩)

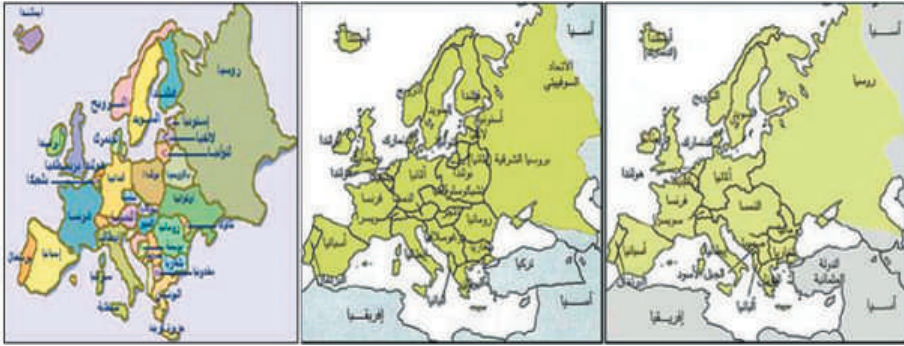
وهذه الروح العدائية عند الرومان تجاه الآخرين تواصلت مع الأجيال، وباتت صفة أصيلة في السلوك الغربي تجاه غيرهم، وتحولت مع الممارسة إلى سلوك عام، يهدف إلى الهيمنة على الأمم المغايرة ورفض محاولات الشعوب الأخرى للاستقلال، حتى لو أدى الأمر إلى إزهاق الأرواح.

## ثانياً: التعارك مع الأشقاء واستنزاف الذات

ذاق الأوروبيون بسبب عقلية الصراع الوليات. فقد قتل بعضهم بعضاً وسفكوا دماءهم بأيديهم. وشرد بعضهم بعضاً. وتغيرت الحدود السياسية داخل هذه القطعة الجغرافية مراراً بفعل الحروب، وتمزقت أعراق. لم تشهد منطقة حروباً استمرت عقوداً من الزمن، ومات فيها ملايين البشر غير أوروبا.

إن الحروب بين الأمم الأوروبية تفوق الوصف في بشاعتها «فقد شهد التاريخ الأوروبي حروباً استمرت عشرات السنين. الأمثلة كثيرة أبرزها ما حدث عقب مولد حركات الإصلاح الديني التي أسسها مارتن لوتر فقد «أدى مولد البروتستانتية في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، إلى الحرب بين الكاثوليك والبروتستانت، التي استمرت لأكثر

### خريطة (١): الحروب وتأثيرها على تغيير الحدود السياسية للدول الأوروبية



أوروبا اليوم

بعد الحرب العالمية الأولى

أوروبا قبل الحرب العالمية الأولى

المصدر: الموسوعة العربية العالمية. توضح الخرائط الثلاث تغير الحدود السياسية للقارة الأوروبية بسبب حربي القرن العشرين، الأولى والثانية، اللتين وصفتا بالعالميتين بينما هما في الحقيقة حربان بين الأوروبيين بعضهم البعض.

من مائة عام. ولا يزال شعور الكراهية يسود بين الكاثوليك والبروتستانت في أجزاء قليلة من أوروبا. فعلى سبيل المثال، أدى الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت في أيرلندا الشمالية إلى كثير من أعمال العنف في المنطقة منذ الستينيات من القرن العشرين». (٢٠) استمرت حرب المائة عام (١٣٣٧ - ١٤٥٣ م) بين إنجلترا وفرنسا على مدى عهود حكم خمسة ملوك إنجلترا وخمسة ملوك فرنسيين. وكان القرن العشرين أكثر القرون دموية؛ إذ قتل الملايين من الأوروبيين في حربي عالميتين بسبب نمو النزعات القومية، والدينية. فقد أسفرت الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨ م) عن «قتل ١٠ ملايين جندي من الدول التي خاضت الحرب، وأصيب ٢٠ مليون آخرين». (٢١)

وفي الحرب العالمية الثانية سقط أكبر عدد من القتلى يعرفه تاريخ الحروب، فقد أزهقت الحرب من الأرواح، وسببت من الخسائر أكثر مما سببته أي حرب أخرى. نتج عن القتال بين الأوروبيين موت ملايين من البشر. تشير معظم التقديرات إلى «مقتل ٥٥ مليون شخص» (٢٢)، بينما في تقديرات أخرى يصل عدد الضحايا إلى «٦٢ مليون إنسان تقريباً» (٢٣).

وقد استخدمت كل أنواع الأسلحة في هذه الحرب، وكان إحداث أكبر قدر من التدمير هدف الفريقين المتقاتلين، وكان الموت والخراب سمة مميزة لهذا الصدام. ولقد جر القصف الجوي «الخراب على أهداف مدنية وعسكرية على السواء، وترك كثيراً من المدن في دمار خاصة في ألمانيا واليابان. فقد خربت القنابل المنازل والمصانع ومعدات النقل ووسائل المواصلات، ونشرت المعارك البرية الخراب فوق مناطق شاسعة. وبعد الحرب تشرد ملايين من الجياع والذين لا مأوى لهم في المناطق الخربة». (٢٤)

عندما بدأ الرجل الأبيض يخرج من القارة الأوروبية، بصراعاتها وتاريخها الصدامي لم يترك حب الصراع خلف ظهره، ولم يتخلص من الروح العدوانية، إنما حمل معه ذات الروح إلى العالم الجديد، وبدلاً من ولادة إنسان آخر متحرر من أسر الماضي بدا أكثر شراسة وأشد عدوانية، وظهرت سمات سادية جديدة.

### ثالثاً: انتقال عقلية الصراع إلى العالم الجديد

كان الأوروبيون الذي هاجروا إلى أمريكا أكثر شراسة من أسلافهم. وبدلاً من التحضر وإقامة المدينة الفاضلة التي كانوا يحلمون بها ويدعون لها ضربوا أسوأ مثال في العداوة وإراقة الدماء واستئصال الآخرين. فقد «هاجر المتطهرون من الإنجليز الأوائل إلى الولايات المتحدة، حاملين معهم العقيدة الأكثر دموية في تاريخ البشرية، ومسلحين بفكرة: الشعب المختار، مقننين فكرة الإبادة، وكأنها حسب روايتهم إلهية». (٢٥)

يكشف تعامل المهاجرين الأوروبيين مع الهنود الحمر عندما نزلوا أمريكا عن تمكن عقيدة الصراع العدوانية التي ظهرت تجاه سكان البلاد الأصليين. فقد تم إبادة الملايين من الهنود الحمر، وتم إفناؤهم بالجملة في أكبر مذبحه لشعب عرفها التاريخ القديم والحديث. وكانت نشأة أمريكا - في ذاتها - مثلاً معبراً عن الروح الاستتصالية التي تلبست المهاجرين الغربيين الأوائل الذين تركوا أوروبا إلى الوطن الجديد، وأقاموا دولتهم على أساس إفناء الآخر وإنهاء وجوده.

### ١ - تطور فكر الإبادة:

ما تعرض له الهنود الحمر من مذابح على يد الرجل الأبيض، يوضح جانباً مظلماً في

الشخصية الغربية، فالأمة الهندية تعرضت لحروب الإبادة الجماعية التي لم يشهد لها التاريخ مثيلاً. شارك الأوروبيون من معظم القوميات والجنسيات في هذه المذابح التي لونت الأرض الأمريكية بلون الدم. فهذه القارة تعرضت لاجتياحات أفنت معظم شعوبها، ودمرت حضاراتها. والدول التي نراها اليوم بنيت فوق مقابر جماعية، تخفي معها جرائم تقشعر لها الأبدان.

من الوثائق التي كشفت عن الفظائع التي ارتكبتها الأوروبيون عندما اجتاحتوا الأمريكتين ما كتبه المطران برتولومي دي لاس كازاس في مذكراته عن الفترة ١٥١٨ إلى ١٥٤٢ التي صاحب فيها طلائع الأسبان إلى العالم الجديد. ولا يخلو كتاب يتناول تاريخ الاكتشافات وإبادة الهنود من إشارة لهذه الشهادة التاريخية.

ما تعرض له الهنود الحمر من مذابح على يد الرجل الأبيض، يوضح جانباً مظلماً في الشخصية الغربية

يقول لاس كازاس: «كان الهنود في البداية يظنون أن المسيحيين قد نزلوا عليهم من السماء. كان ذلك إلى أن عذبهم المسيحيون ونهبوهم وفطّعوهم ونكبوهم مراراً وتكراراً... إن الذين ذهبوا إلى هناك من أدياء المسيحية أبادوا الشعوب الهندية الوادعة، ومحووا ذكرها من وجه الأرض، إما بالاجتياحات

الدموية المتوحشة، وإما باستعباد من تبقى استعباداً فظاً غليظاً شنيعاً لم يشهد مثله البشر ولم تعرفه الدواب. أما من كان يحلم بالحرية أو يفكر فيها أو يحاول الخلاص من عذاباته كما يفعل ذلك كل إنسان فمصيره القتل» (٢٦).

وحين «رأى الهنود كل هذا العنف والتفطيع بدءوا يعرفون أن هؤلاء الرجال لم ينزلوا من السماء، وصار بعضهم يخشى طعامه أو يهرب من هؤلاء البشر القساة ويختفي في الغابات. كان المسيحيون يطاردونهم ويختطفون أسياذ القرى. وقد بلغ بهم الطيش والتراذل أن اغتصب قبطان مسيحي امرأة حاكم الجزيرة وامرأة أشهر نبلائها. آنذاك راح الهنود الحمر يبحثون عن وسائل لطرد المسيحيين، وحملوا السلاح. ولكنه كان سلاحاً غير هجومي، بل كان أعجز عن المقاومة والدفاع؛ لذلك كانت حروبهم أشبه بألعاب الصبيان» (٢٧).

«كانوا يدخلون على القرى فلا يتركون طفلاً أو حاملاً أو امرأة تلد إلا ويبقرون بطونهم ويقطعون أو صالهم كما يقطعون الخراف في الحظيرة. وكانوا يراهنون على من يشق رجلاً

بطعنة سكين ، أو يقطع رأسه أو يدلق أحشاءه بضربة سيف. كانوا يتزعجون الرضع من أمهاتهم ويمسكونهم من أقدامهم ويرطمون رؤوسهم بالصخور، أو يلقون بهم في الأنهار ضاحكين ساخرين. وحين يسقط في الماء يقولون: عجباً إنه يختلج. كانوا يسفدون الطفل وأمه بالسيف كما تسفد قطع اللحم بالسفود، وينصبون مشائق طويلة، ينظمونها مجموعة مجموعة، كل مجموعة ثلاثة عشر مشنوقاً، ثم يشعلون النار ويحرقونهم أحياء. وهناك من كان يربط الأجساد بالقش اليابس ويشعل فيها النار.

كانت فنون التعذيب لديهم أنواعاً متنوعة. بعضهم كان يلتقط الأحياء فيقطع أيديهم قطعاً ناقصاً؛ لتبدو كأنها معلقة بأجسادهم، ثم يقول لهم: هيا احملوا الرسائل أي هيا أذيعوا الخبر بين أولئك الذين هربوا إلى الغابات. أما أسياذ الهنود ونبلاؤهم فكانوا يقتلون بأن تصنع لهم مشواة من القضبان يضعون فوقها المذراة، ثم يربط هؤلاء المساكين بها، وتوقد تحته نار هادئة من أجل أن يحتضروا ببطء وسط العذاب والألم والأين». (٢٨)

«وحين كان الأسبان يريدون أن ينهبوا قرية أو يسرقوا ذهبها وخيراتها يصلون إليها بعد منتصف الليل. وساعتها يقرءون على الهنود المساكين الغارقين في النوم فرمان فتحهم بالأسبانية التي لا يفهمها كل السكان، ويقولون فيه: يا زعماء قبائل الهنود، ويا سكان القرية. إنا نعلمكم بوجود إله واحد، وبابا، وملك قشتالة سيد هذه الأراضي كلها، فاخرجوا وأعلنوا الطاعة له؛ وإلا فإننا سنعلن الحرب عليكم ونقتلكم. ومع طلوع الفجر كان الأسبان يدخلون على هؤلاء المساكين الأبرياء النيام فيحرقون منازلهم القشية ويحرقون الأطفال والنساء وهم أحياء. كان الأسبان طوال هذه السنين يكتبون ويزعمون أن الله أرسلهم لفتح هذه البلاد التي كانت آمنة مطمئنة، وأن الله هو الذي نصرهم على هذه الأمم. وكانوا يحمدون الله في صلواتهم ويشكرونه؛ لأنه أعطاهم كل هذه الخيرات؛ ولأنهم قاموا بكل هذا الطغيان». (٢٩)

وفي شهادة أخرى يرويها «دييجو ادي لانداسقف يوكاتان، وهو لا يحب الهنود بوجه خاص، يقول: إنه رأى شجرة بالقرب من هذه المحلة، شفق قائد على فروعها عدداً كبيراً من الهنديات كما شفق على أقدامهن الأطفال الصغار. (...). لقد اقترف الأسبان أهوالاً لم يسبق لها مثيل؛ إذ كانوا يقطعون الأيدي والأذرع والأرجل، ويقطعون أثداء النساء، وكانوا يلقون بها في البحيرات العميقة ويطعنون الأطفال؛ لأنهم لم يكونوا يمشون بالسرعة التي تمشي بها أمهاتهم. وإذا ما سقط أولئك -الذين كانوا يقتادونهم مسلسلين من الأعناق-

مرضى أو لم يسيروا بالسرعة التي يسير بها رفاقهم، فقد كانوا يقطعون رؤوسهم حتى لا يضطرون إلى التوقف وفك أغلالهم». (٣٠)

وقد أخرج حب الصراع مكنون الشر في نفوس المستعمرين الجدد، وولّد نزعات عدائية غير مسبقة؛ إذ توارت الروح الإنسانية خلف رغبة الإبادة والتشفي والتفنن في القتل والتمثيل بالضحايا. من هذه الظواهر المروعة سلخ رؤوس الضحايا، للإرهاب والتخويف، وأيضاً كوسيلة لإحصاء عدد القتلى، بدلاً من معاناة حمل رؤوسهم!

في دراسته عن جرائم الإبادة التي تعرض لها الهنود يؤكد منير العكش<sup>(٣١)</sup> أن «الرجل الأبيض هو الذي خلق عادة السلخ في العالم الجديد، وأن أكثر جرائمها من صنع يديه.. وكانت عادة سلخ فروة الرأس متبعة أيام الحروب الإنكليزية الأيرلندية، ففي أواخر القرن السادس عشر لجأ القائد الإنكليزي همفري جلبرت إلى قطع الرؤوس وسلخ فروتها لإثارة الذعر في نفوس الأيرلنديين وقمع انتفاضتهم (١٥٦٧-١٥٧٠) في فظاعات أقلها زرع جانبي الطريق إلى مقر زعيم الانتفاضة بالرؤوس المقطوعة. وقبل أن يتوجه إلى العالم الجديد، خلع عليه البلاط لقب «فارس»؛ اعترافاً ببلائه في نشر الحضارة.

فقد أعاد الجنرال الفرد سولي هذا المشهد بكل تفاصيله بعد حوالي ثلاثة قرون عندما أمر بنصب الرؤوس المقطوعة لهنود اللاكوتا على عصي، كل رأس على عصا، وزرعها على جانبي الطريق المؤدية إلى مقره العام. ولقطف الرؤوس وظائف أخرى غير الزينة أو فرض الهيبة كما كان الحال في أيرلندا والمستعمرات الأمريكية الأولى. لقد استخدمت في البداية - بدلاً عن آلات الحساب الخرزية - للتأكد من عدد القتلى، ثم سرعان ما اكتشفت أخلاق السوق فيها وسيلة للرزق فاعتمدتها وطورتها وجعلت منها صناعة مستقلة.

رصدت السلطات الاستعمارية مكافأة لمن يقتل هندياً، ويأتي برأسه، ثم اكتفت بسلخ فروة الرأس إلا في بعض المناسبات التي تريد فيها التأكد من هوية الضحية. ولعل أقدم مكافأة إنكليزية على فروة الرأس بدلاً من كامل الجمجمة تعود إلى عام ١٦٩٤. في ١٢ سبتمبر من ذلك العام رصدت المحكمة العامة في مستعمرة ماساشوستس مكافآت مختلفة لكل من يأتي بفروة رأس هندي مهما كان عمره أو جنسه. وتختلف هذه المكافآت بحسب مقام الصياد: خمسون جنيهًا للمستوطن العادي، وعشرون جنيهًا لرجل الميليشيا، وعشرة جنيهات للجندي. ولم تمض عشرون سنة حتى رصدت كل المستعمرات الإنكليزية جوائز مماثلة.

في فالموث، أو ما يعرف ببورتلاند أسس توماس سميث إحدى هذه الشركات التي تستأجر فرقة من المغامرين لقتل الهنود والعودة برؤوسهم أو فرواتها. كان سميث يزود الفرقة بالمعدات والذخائر ويتقاضى ثلث المكافأة. وتقول صفحة يومياته: إن حصته من مكافآت ذلك اليوم الكاسد (١٨ يونيو ١٧٥٧) بلغت ١٦٥ جنيهًا. كان الصيادون يتعهدون قرى معينة، يمشطونها قرية قرية ولا يبقون فيها فروة واحدة.

ولأن فروة رأس الهندي الحليف لا تختلف عن فروة الهندي العدو؛ ولأن صيدها أسهل؛ ولأن أخلاق السوق لا تعنيها هذه التفاصيل التافهة فقد ركزت هذه التجارة جهودها على صيد رؤوس الحلفاء، ولا سيما أولئك الذين تنصروا واستعاروا لأنفسهم أسماء القديسين. زعمت فرقة من أربعة رجال من مستوطني نيوجرسي أنهم يصطادون هنود فيلادلفيا، لكن تبين أن كل ضحاياهم كانوا من هنود المنطقة الذين أنقذ المستعمرون أرواحهم واستخدموهم في أعمال السخرة.

يروي المغامر لويس وتزل Lewis Wetzel أن غنيمة من فروات رؤوس الهنود كانت لا تقل عن أربعين فروة في الطلعة الواحدة، ويعتبر وتزل وهو ابن مستوطنين مغامرين، من أبطال التاريخ الأمريكي وما يعرف بعمالقة الثغور. جرح صغيراً عندما كان أبواه يحاولان الاستيلاء على أراض هندية بالقوة. في الرابعة عشرة دشّن أول ضحاياه ونذر نفسه لقتل الهنود. لهذا لم يتزوج ولم يضع لحظة من حياته في عمل آخر. من جرائمه قتل زعيمين هنديين فيما كانا يجريان مفاوضات السلام مع المستعمرين، الأول زعيم الدوللاوير عام ١٨٧١، والثاني زعيم السينكا عام ١٨٧٩. وبدءاً من «وتزل» صار قطع رأس الهندي وسلخ فروة رأسه من الرياضات الإنجليزية المحببة، بل الكثير منهم يتباهى بأن ملابس صيده وأحذيته مصنوعة من جلود الهنود. ثم تغير الحال بعد عقد من الزمان عندما بدأ الإنكليز الملكيون والإنكليز الشوار يسلخون رؤوس بعضهم فيما يدعي كل منهم وصلاً بالعبادة الإلهية، وينسب إليها جرائمه وفضائعه. وبالطبع فقد تنازع الطرفان على صفة الاختيار والتفضيل، وتمثيل (شعب الله)، لكنهم جميعاً ظلوا مخلصين لتقليد السلخ والتمثيل بالجثث طوال فترة ما يسمى بحرب الاستقلال». (٣٢)

وقد تعددت الأرقام حول الضحايا الهنود الذين أُبِيدوا على يد الرجل الأبيض إلا أن أحد التقديرات يشير إلى أن «عدد سكان الأرض في عام ١٥٠٠ يبلغ نحو ٤٠٠ مليون نسمة،



يسكن ٨٠ مليون منهم القارتين الأمريكيتين. وبحلول أواسط القرن السادس عشر يتبقى من هذه الملايين الثمانين عشرة ملايين. أما إذا قصرنا حديثنا على المكسيك، فإن عدد سكانها، عشية الفتح، يبلغ نحو ٢٥ مليون نسمة، بينما يبلغ في عام ١٦٠٠ مليون نسمة. وإذا كانت كلمة إبادة قد استخدمت استخداماً دقيقاً في الحديث عن حالة ما، فهذه الحالة هي تلك التي نتحدث عنها. فهذا رقم قياسي، ليس فقط من الناحية النسبية (تدمير بنسبة ٩٠ ٪ وأكثر) وإنما من الناحية المطلقة أيضاً؛ لأننا نتحدث عن انخفاض لعدد السكان يقدر بـ ٧٠ مليون إنسان». (٣٣)

لم يكن الهنود الحمر هم وحدهم ضحايا العالم الجديد. فالسود الذين تم جلبهم من إفريقيا كعبيد كان لهم قصة مأساوية لازالت آثارها باقية حتى اليوم. فقد نشأت أمريكا على أكتاف وجماجم ملايين الأفارقة الذين كان يقوم الغريون باصطيادهم من إفريقيا ويتم شحنهم في السفن لخدمة الرجل الأبيض. وروى السود الأرض الأمريكية بدمائهم كي تنمو المحاصيل وتدور المصانع ويتعش الاقتصاد. ولا يمكن تجاهل أن الكثير من السود الذين اختطفوا من القارة الإفريقية كانوا من المسلمين.

## ٢ - الحرب الأهلية الأمريكية:

اكتوى المستعمرون الجدد بنار الصراع، مع تزايد النزعة العدائية للرجل الأبيض في الوطن الجديد فيما عرف بالحروب الأهلية. كان منطق القوة هو السائد في كل شيء. القوي هو الذي يحكم وهو الذي يفرض كلمته، واللجوء إلى العنف لحسم أي نزاع هو الخيار الوحيد. فقد تقاتل الأمريكيون وقتل بعضهم بعضاً. وكانت خسائر الحروب بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية فادحة.

كلفت الحرب البلاد أعداداً هائلة من الأرواح «فقد بلغ عدد القتلى من الطرفين ٦٢٠ ألفاً، من بينهم ٣٦٠ ألفاً من الشمال و ٢٦٠ ألفاً من الجنوب. وقد مات أكثر من نصف هؤلاء نتيجة الإصابة بالأمراض. وكلفت الحرب الأمريكيين عامة ثمناً باهظاً في الممتلكات والمزارع والصناعة والتجارة، وهلك الكثيرون من المدنيين من رجال ونساء وأطفال». (٣٤)

ما حدث في المعارك لا يعطي انطباعاً بأن القتال يدور بين أشقاء من دم واحد. فكلا الطرفين كان حريصاً على إفناء الآخر. هذا الكم من القتل الذي شهدته أمريكا ربما لا

نجد بهذا الشكل في أي بقعة أخرى. فالسلاح يستخدم منذ اليوم الأول لنزول المهاجرين. واستخدام السلاح كوسيلة وحيدة لحسم أي خلاف ظاهرة مرتبطة بالمواطن الأمريكي. وقد توارثت الأجيال حمل السلاح ليصبح حقاً أصيلاً لكل مواطن، لا تستطيع أي حكومة أمريكية تقييده كما هو في باقي العالم. وترتب على شيوع هذه الظاهرة أن أصبحت المدن الأمريكية أقل أمناً. فحوادث القتل والعنف اليومية بها لا تُقارن، والمدن الأمريكية تشهد أعلى نسبة من الجرائم الجنائية على المستوى الدولي.

«إن العقلية الأمريكية تعاني تاريخياً من مشكلة الولع باستخدام البندقية والسلاح. لقد كان رب الأسرة الأمريكي يُعرف في الماضي بأنه كان يحمل سلاحه داخل بيته معظم الوقت، وإذا ضايقه شيء ما؛ كان يقف ويطلق الرصاص في الهواء لينفّس عن ضيقه، ولم يُعرف شعب آخر في العالم إطلاقاً بذلك، ولا

إبادة المخالفين والقضاء عليهم  
بدلاً من التعايش معهم يعني أننا  
أمام طفرة في النزوع العدائي

حتى في باقي الشعوب الغربية. كان إطلاق الرصاص في المجتمع الأمريكي أمراً معتاداً منذ بدء الدولة وحتى الآن، ولذلك ليس عجباً أن تتعامل أمريكا مع العالم بالمنطق الوحيد الذي تعشقه وتهواه، وتظن أنها تجيده وهو منطق القوة والسلاح».<sup>(٣٥)</sup> وخطورة منطق السلاح أنه يغري صاحبه باستخدام القوة المفرطة، والقضاء على الآخر، وليس مجرد قهره والسيطرة عليه، وهذا شعور مدمر. إبادة المخالفين والقضاء عليهم بدلاً من التعايش معهم يعني أننا أمام طفرة في النزوع العدائي فاقت كل ما سبق من ميول عدوانية.

ويبرز هذه النزعة اللاإنسانية استخدام الأسلحة الأشد فتكاً في الحروب المعاصرة المعروفة بأسلحة الدمار الشامل. فقد شهد القرن العشرون أول استخدام للسلاح النووي عندما ألقت أمريكا قنبلتين على هيروشيما ونجازاكي على الرغم من أن إلقاءهما لم يكن ضرورة عسكرية؛ حيث إن اليابان كانت قد استعدت للاستسلام. وتكرر استخدام أسلحة الدمار الشامل في الحروب الأخيرة؛ إذ تم استخدام اليورانيوم المنضب ضد الجيش العراقي في حرب الخليج الأولى أوائل التسعينيات، ثم الفسفور الأبيض ضد المدنيين في الفلوجة عقب الغزو الأمريكي للعراق عام ٢٠٠٣م.

ظهور فكر الإبادة يعد خطراً على البشرية ويلقي بظلال قاتمة على مستقبل العالم. و«ثمة عناصر تسم التشكيل الحضاري الغربي الحديث جعلت الإبادة احتمالاً كامناً فيه، وليست مجرد مسألة عرضية، وولدت داخله استعداداً للتخلص من العناصر غير المرغوب فيها عن طريق إبادتها بشكل منظم ومخطط... وقد قام الإنسان الغربي بعملية الإبادة النازية وغيرها من عمليات الإبادة لا على الرغم من حضارته الغربية وحداثته وإنما بسببها». (٣٦)

وهذه النزعة الإبادية ازدادت رسوخاً مع النهضة الغربية التي كان من المفترض أن تكون

أكثر إنسانية، وهذا يثير التساؤل، وكأن الإنسان الغربي تحديداً كلما تقدم مادياً تراجع إنسانياً، وتهيمن عليه قيم أنانية مدمرة لخميرة الإنسانية بداخله. يبدو أن «ظهور النزعة الإبادية هو الرؤية الغربية الحديثة للكون التي يمكن أن نصفها بأنها رؤية علمانية إمبريالية شاملة». (٣٧)

هيمنة الغرب العسكرية والسياسية والثقافية أعطت مشروعية مزيفة لأفكار الصراع والرغبة في إبادة الآخر

إننا اليوم نواجه تطوراً مدمراً من الغرب يحمل

نزعة التخلص من الحضارات الأخرى. ومن حقنا «محاكمة ثقافة وحضارة الغرب، على أساس دورها الهدام للثقافات الأخرى؛ طبقاً للفكرة الملعونة -الشعب المختار- التي تم عبرها رفض الآخر وإنكاره حتى إبادته. الغرب يرفض ويدين المختلفين، وهو بهذا الرفض للأشكال الإنسانية الأخرى يحمل أسباب انهياره النهائي، ويضع مستقبل الإنسانية في خطر حقيقي». (٣٨)

إن هيمنة الغرب العسكرية والسياسية والثقافية أعطت مشروعية مزيفة لأفكار الصراع والرغبة في إبادة الآخر، بتقديمها في صور مقبولة من خلال الإعلام والفنون، وتم تكرار الضرب على هذا الوتر؛ لتبرير السلوك العدواني وإعطائه مسحة أخلاقية للتأثير في وعي الآخرين، ولإقناع الذات بصحة ما يرتكبه تهرباً من تأنيب الضمير.

ومن يتابع الثقافة الغربية المعاصرة يلحظ تقديس الصراع كخيار وحيد في التعامل مع الآخرين. وتؤكد الفنون والهوايات المعاصرة والظواهر الأخلاقية في الغرب أن الأجيال الجديدة توارثت هذه الروح المتمردة، وسيطرت عليها ذات الفكرة، وكأنها كالدّم يجري في العروق لا تندثر مع مرور الزمن.

### ٣ - الصراع والفنون:

الفنون الغربية المعاصرة على الرغم مما بها من تنوع وازدهار وإبداع؛ فإن لها اهتماماً متزايداً بفكرة الصراع . فالإنسان الغربي يهتم كثيراً بالقوة البدنية الخارقة، وينظر بإعجاب للأعمال العنيفة، ويألف رؤية الدماء ومشاهد الألم. ولإرضاء هذه الرغبة لدى الجمهور تضخ شركات الإنتاج السينمائي الغربية مظاهر وصور العنف وكأنها رسالة سماوية. إن الكثير من الأعمال الفنية هي تلك التي تدور حول القتل والدمار. قدمت السينما الأمريكية للعالم شخصيات «الكابوي، والسوبرمان، وطرزان، وزورو، ورامبو» كنماذج للإنسان الغربي الذي لا يُقهَر، ذي القوة المبهرة، الذي يُقتل الآخرين ولا يُقتل. يستطيع البطل الأمريكي الانتصار على عدد كبير من الخصوم ولا يُخدش. ويقدمه الغرب مع كل ذلك على أنه بطل وليس قاتلاً.

ومن أغرب ما أنتجه الإعلام الغربي من نماذج تجسد موضوع الصراع والرغبة في استنزاف الآخرين، شخصية مصاص الدماء «دراكولا»؛ هذا الكائن الخرافي الذي لا يموت. يعيش على مصص الدماء ولديه قوة خارقة. وهذه الشخصية ربما تعبر رمزياً عن نفسية من يعيش على الاستيلاء على ثروات الشعوب.

وحتى عندما انهزمت أمريكا في حروبها مع فيتنام، اختارت السينما شخصية «رامبو» لتجسد صراع الجندي الأمريكي مع نفسه، ومع المجتمع ومع البشرية جمعاء. ولم يكن لرامبو رفيق سوى السلاح، ولم يعرف وسيلة للتعامل مع الحياة إلا القوة والصراع. وبجانب السينما فإن الصراع لامس هوايات الشباب. فإذا نظرنا إلى الموسيقى الغربية المعاصرة نجد أنها أخذت أشكالاً جديدة لم تكن موجودة من قبل. فالأمريكيون لم يكتفوا بهذا الفن كما هو، وإنما اخترعوا ألواناً من الموسيقى العنيفة مثل هارد روك، الميتاليك، والروك أند رول. وأصبحت الموسيقى الصاخبة التي تصمم الأذان والتي تصاحبها حركات العنف هي الأكثر شعبية. وحتى كلمات الأغاني فقدت معاني السلام والود وجسدت دائماً فكرة الصراع.

تحولت الحفلات الموسيقية إلى ساحات لاستعراض العضلات والحركات العنيفة التي تتخذ أشكالاً هيسترية في معظم الأحيان، وأصبحت طبول الحرب المزعجة مكوناً

أساسياً في منظومة الآلات الموسيقية. وأصبح هذا النوع من الصخب الموسيقي يستقطب الجمهور الأكبر من المحبين للترفيه، ولم تعد الصالات الصغيرة تستوعب المشاركين فبدأت الفرق الموسيقية وكبار المغنين للفن العنيف ينظمون الحفلات في ملاعب كرة القدم والساحات الكبرى التي تسع عشرات الآلاف من الراغبين في التنفيس «الصراعي» على أنغام الموسيقى.

ووسط قرع الطبول والموسيقى المزعجة يتراقص جمهور كبير من البشر ويفرغون الطاقة في حركات عشوائية ويضرب بعضهم بعضاً دون اكتراث. وأصبح من المعتاد أن تشهد هذه الحفلات سقوط مصابين تحت الأقدام، وتعرض البعض لجروح وكسور، الأمر الذي ترتب عليه ظهور أطباء تخصصوا في علاج ضحايا الحفلات الموسيقية، والحضور الدائم بالقرب من المصابين في أرض الاشتباك على قرع الطبول، والانطلاق لممارسة عملهم وسط مخاطر الضرب من الراقصين المتصارعين.

فقد «أسس دكتور ريلمان في عام ١٩٧٢ مع أصدقائه مجموعة عيادات هایت أشبوري المجانية وهي عيادات لموسيقى الروك، أي مؤسسة علاجية تعالج المصابين في حفلات الروك. وقد كتب الدكتور ريلمان في سان خوسيه في كاليفورنيا، واصفاً ما يفعله فريق الروك (الارسن) يهز الجموع في ملعب كرة السلة في جامعة الولاية. النغمات التي يصدرها جيتار الإيقاع ضربات تشبه ضربات الشاكوش. والأرض ليست سوى مكان دوران الشباب الراقص من متصبي العرق الذين يتدافعون ويلقون بأنفسهم فوق الآخرين. وفي مكان قريب بجانب الكواليس، ارتدى ديفيد ريلمان قفازاته البلاستيكية، وبدأ فحص بعض المصابين. ها هو ذا شاب في الواحدة والعشرين من عمره، عاري الصدر، ومصاب بجرح يشبه عضه حديثة الإصابة. وتظهر إصابة بيده التي أزيلت من عليها طبقة الجلد، توضح أنه تلقى ركلة من البوت العسكري الذي يعتبر أحدث موضة بين الشباب». (٣٩)

وإذا تركنا الفنون سنجد أن هوايات الغربيين العنيفة برزت في مجال الرياضة أيضاً، إذ زادت شعبية الهوايات التي تتوافق مع هذه النزعة الصدامية. ومن الملفت أن الرياضات العنيفة التي لا تلقى حماساً كبيراً في أنحاء العالم نمت وانتشرت في الغرب. وهناك رياضات عنيفة عديدة توجد في الغرب فقط، ولا وجود لها في باقي الكرة الأرضية.

#### ٤ - الرياضة وتفريغ العنف:

فقدت الرياضة بين ممارسيها حس الترفيه والمتعة، وتحولت إلى صراع من أجل النصر. ويعكس نوعُ المسابقات الرياضية التي تحظى بأكبر جمهور في الغرب ميولَ المواطن العادي، وما يدور في مخيلته وعقله الباطن. من المعلوم أن كثيراً من الرياضات التي يعشقها الغربيون هي تلك التي تحمل علامات القسوة وملامح الصراع.

فقد نمت المصارعة الحرة التي تعد من الرياضات الأكثر عنفاً في الغرب بالمقارنة بباقي العالم، وهي بمثابة تقنين لتعارك «فتوات» الشوارع الأمريكية، ونقل القتال إلى حلبة وسط جمهور متحمس للأقوى مع وضع بعض الضوابط لإضفاء المشروعية على هذه الرياضة التي تتميز باستعراض القوة، وتنتهي بسحق أحد المتصارعين. نفس الأمر مع الملاكمة التي نمت في الغرب وصارت من أهم الرياضات. بل إن كرة القدم في أمريكا غير تلك التي يعرفها العالم، فهي تعتمد على المصارعة. ومن الملفت أن الولايات المتحدة التي تعلي من شأن الرياضات التي ترتبط بالقوة البدنية لا تجد لها قدماً في مسابقات كرة القدم التقليدية التي تعتبر اللعبة الشعبية الأولى في العالم.

وتفنن بعض الغربيين في اختراع مسابقة الصراع مع الحيوان بجانب صراع الإنسان مع الإنسان. وهذه الفكرة تجلت في مصارعة الثيران التي تقام لها مهرجانات سنوية في أسبانيا لإظهار تفوق الإنسان على الثور، وتنتهي بقتل الثيران بعد تعذيبها برشق السهام في ظهرها، وسط فرح وسرور الجماهير! ويسبق هذه المسابقات مهرجانات تنطلق فيها الثيران في الشوارع خلف جمهور غير مُبال بالألم وأحياناً القتل سحقاً تحت حوافر الثيران الهائجة أو طعنًا بقرونها الحادة.

هذه الأمثلة تؤكد أن روح الصراع لدى الغربيين تظهر في كثير من المجالات، وأنها تصبغ العديد من مناحي الحياة. وحتى عندما بدءوا يستشرفون المستقبل كانت فكرة الصراع هي محور تفكيرهم أيضاً. ويبدو أن المدنية والتقدم التكنولوجي لم يجلبا الهدوء والطمأنينة وغرس الأمل في غد أفضل وأكثر أمناً.

#### رابعاً: المستقبل وسيادة فكرة الصراع

عندما بدأ الكُتّاب والمفكرون الغربيون يتنبئون بالمستقبل، كان الصراع والصدام ثم

الدمار ما ينتظر البشرية من خلال أحلامهم وكتاباتهم وأعمالهم . لم يكتفوا بالصراع بين البشر على الأرض، وإنما تخيلوا اتساع نطاق المعارك بين الأرض والفضاء، بين البشر ومخلوقات قادمة من الكواكب الأخرى. طغت الرؤية السوداوية على كتابات الغربيين عن المستقبل. الكون - من وجهة نظرهم - مقبل على صدمات وحروب نووية. وبناء على هذا التصور انخرط الغرب في الإعداد لحرب الكواكب. ووضعت ميزانيات ضخمة لما عرف ببرامج حرب النجوم، على حساب رفاهية الإنسان؛ استعداداً لهذه المواجهات المستقبلية المتهمة.

تجاوبت السينما الغربية بدورها مع هذه التصورات المستقبلية وقدمت الأفلام التي تدور حول حروب المستقبل والصدام الكوني، مثل «يوم الاستقلال» و«حرب النجوم» و«يوم القيامة»... إلخ. يغلب الطابع الدموي على كل ما تبثه وسائل الإعلام الغربية عند حديثها عن التصورات المستقبلية. فالأسلحة النووية هي المستخدمة في هذه المواجهات. أي الدمار التام للمدن والكواكب.

وتمادى العقل الغربي أيضاً في تنبؤاته للمستقبل بأفكار أشد تطرفاً لروح الصراع؛ إذ بدأت تظهر أفكار متعلقة بالبحث عن جينات الأجرام داخل جسم الإنسان لمعاقبة الأشخاص مسبقاً، وقبل أن يرتكبوا أفعالاً إجرامية - حسب تخيلهم - بمرر إنقاذ البشر. وقد أنتجت السينما الأمريكية في هذا المجال فيلم Minority Report أو «تقرير الأقلية».

يتضح مما سبق أن فكرة الصراع واستخدام العنف التي يعكسها التفكير الغربي مزمنة، في الماضي والحاضر والمستقبل. فالحضارات القديمة والوسيلة والحديثه تغلب عليها الروح العدائية تجاه الآخرين، والسعي للسيطرة على الغير ثم إبادته إن كان ذلك ممكناً. وتؤكد عملية الرصد التاريخي أن النزعة للعدوان تزداد مع التحضر وليس العكس.

لكن هناك حقيقة لا جدال فيها، وهي أن الحروب التي عانى منها العالم جاءت مع انفراد الغرب بالقيادة وغياب قوى عالمية منافسة، خاصة الدولة الإسلامية مع انهيار الخلافة العثمانية. المسلمون وحدهم هم الذين استطاعوا تطويق النزعة العدوانية المسيطرة على الغرب، وحصروا الأوروبيين في منطقتهم الجغرافية وكتبوا الرغبة التوسعية عندهم. لقد فهم المسلمون روح الصراع المسيطرة على الغرب، وتعاملوا معها منذ بداية تأسيس الدولة الإسلامية. وكان الجهاد هو السلاح الوحيد لمواجهة هذه النزعة العدوانية، وبسبب جهاد



الطلب تم قهر روح الصراع العدائية عند الفرنجة وتقليم مخالبتهم لفترة طويلة من الزمن. ظهرت كراهية الغرب للإسلام مع أول ظهور له. واستمر هذا الموقف المعادي تجاه المسلمين حتى اليوم، واتخذ هذا العداء أبعاداً دينية سوغت لهم مشروعية الحرب ضد المسلمين، واعتبارهم خطراً في كل الأحوال، وأن العدوان على الأمة الإسلامية مباح في كل الأزمان.

### خامساً: العلاقة مع الإسلام

بدأ صدام الغرب مع المسلمين منذ ظهور الدولة الإسلامية في عهد النبي محمد صلى الله عليه وسلم. لم تتسامح الإمبراطورية الرومانية مع الإسلام، بل تعاملت معه كعدو منذ البداية. وهي التي بادرت المسلمين بالعداء وواجهت الدعوة الجديدة بالرفض والمعاداة. وارتكبت الإمبراطورية الغربية في ذلك العصر خطأ تنكره الأعراف الدولية قديماً وحديثاً،

لم تتسامح الإمبراطورية الرومانية مع الإسلام، بل تعاملت معه كعدو منذ البداية

عندما قتلوا مبعوث رسول الله. الأمر الذي تسبب في معركة مؤتة الشهيرة في جمادى الأولى من العام الثامن للهجرة.

فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرسل إلى رؤساء القبائل والملوك يدعوهم إلى الإسلام، فبعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى الشام، إلى ملك الروم فاعترضه الغساسنة، وكانوا حلفاء الروم، فقتلوه بالاتفاق مع هرقل - فيما يبدو من مسار الأحداث - استهزاء بالرسول الكريم ورسائلته. كان قتل مبعوث الرسول موقفاً معادياً مقصوداً لاختبار تلك القوة الصاعدة في قلب صحراء الجزيرة واكتشاف مدى طموحها، وتحدياً لأتباع الدين الجديد. استعد الروم لرد فعل المسلمين بكامل قوتهم واستعانوا بحلفائهم من القبائل العربية الموالية لهم.

الملاحظ أنه «لم يقتل لرسول الله صلى الله عليه وسلم رسول غيره»<sup>(٤٠)</sup> رغم أن الشعوب الأخرى التي أرسل لها رسلاً كانت لها مواقف معادية من الإسلام أيضاً، إلا أنها لم تجاهر بمخالفة الأعراف كما فعل الروم.

بعد ذلك وفي سنوات قليلة تقوض سلطان الرومان فجأة على هذه الرقعة الواسعة، وتقوض أيضاً سلطانها على نفوس الجماهير الغفيرة من رعاياها، الذين دخلوا الإسلام طوعاً، بل وأعجب من ذلك صاروا هم جند الإسلام وحماة ثغوره وعواصمه، وحصروا الروم في الشمال، وجاهدت الدولة البيزنطية في الشمال أن تسترد ما ضاع، وذهب جهدها هدرًا «وظل الصراع مشتتلاً مدة خمسة قرون بين النصرانية المحصورة في الشمال وبين الإسلام الذي يتأخمها جنوباً، ولكن جيوش النصرانية لم تستطع أن تفعل شيئاً يذكر» (٤١).

لم تتوقف الهجمات المتبادلة بين المسلمين والبيزنطيين في فترة الخلافة الأموية على حدود الشام وشرق أوروبا. كان البيزنطيون يستغلون فترات ضعف الدولة الإسلامية، أو تبدل الحكم ويهاجمون، ولكن محاولاتهم كانت دائماً تبوء بالفشل. وكان «انتقال الحكم من الأمويين إلى العباسيين، وما صاحب ذلك من بعض اضطرابات داخلية - لاسيما

كان البيزنطيون يستغلون فترات  
ضعف الدولة الإسلامية، أو  
تبدل الحكم ويهاجمون

في أطراف الدولة - ساعد الإمبراطور قسطنطين الخامس بن ليو الايسوري على أن يفكر في مد تخوم الإمبراطورية في الشرق على طول حدود المسلمين في آسيا الصغرى. من الملفت للنظر أن هذا التخطيط العدواني من جانب الروم لا ينال من المؤرخين المسلمين إلا التفاتة عابرة فيقولون: إنه في سنة ثلاث وثلاثين ومائة خرج طاغية الروم قسطنطين إلى ملطية .. وألح في حصارها وراح يرميها بالمنجنق حتى استسلمت.. ونزح أهلها عنها إلى بلاد الإسلام وتفرقوا في الجزيرة ثم مضى البيزنطيون إلى القيقلا، وهي منطقة الجبال فيما بين أرسطاس والفرات الغربي وكان للعدو الغلبة». (٤٢)

كانت المناطق الحدودية بين المسلمين وأوروبا في حالة حرب دائمة بسبب هجمات الروم وصداماتهم مع الحكومات الإسلامية المتعاقبة، لكن الغلبة دائماً كانت للدولة الإسلامية. فقد قوت صلابه القادة المسلمين، وفريضة الجهاد، وقوة العقيدة مناعة الدولة الإسلامية التي اتسعت في القارات الثلاث، وجعلت حدودها منيعة من أي اختراق، وردت الأوروبيين بعيداً عن الحدود. وظل الطرفان في حالة تدافع فرضت نوعاً من توازن القوة بين الجانبين حال دون أن يستأصل فريق الفريق الآخر، ودون أن يسيطر طرف على الطرف الثاني.

إن صراع الغرب مع الإسلام لم يكن عسكرياً فقط، إنما اتخذ أشكالاً أخرى. فقد تم تشويه صورة الإسلام باختلاق الكثير من الأكاذيب « التي ساقها الكتاب البيزنطيون والأوروبيون، كما كان الهجوم عليه هدفاً للإمبراطورية البيزنطية وأوروبا سواء على الصعيد العقدي أو الصعيد الدعائي من جانب المؤرخين الأوروبيين المدعومين بعلماء الدين المسيحيين في البلاد الخاضعة لسيطرة المسلمين .. وقد تبعهم في نفس المنهج قساوسة أوروبيون بدءاً من القرن الثاني عشر الميلادي وحتى يومنا هذا.. كانت هذه الدعاية قائمة على أساطير وأكاذيب جديدة لكتاب لم يعدوا الجهل بالأحداث التاريخية كما لم يحرموا موهبة تليفق الأكاذيب. وكانت ثمرة هذه الدعاية ما اصطلح على تسميته منذ قرون في أوروبا باسم أسطورة محمد». (٤٣)

ما كتبه المستشرقون ضد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم يوضح بجلاء كم الكراهية وسوء النية، وقد شهد أرنيسست رينان على تحامل أبناء جنسه وملته من المستشرقين على نبي الإسلام. يقول رينان: «لقد كتب المسيحيون تاريخاً غريباً عن محمد .. إنه تاريخ يمتلئ بالحق والكراهية له، لقد ادعوا بأن محمداً كان يسجد لتمثال من الذهب كانت تخبئه الشياطين له، ولقد وصمه دانتى بالإلحاد في رواية الجحيم، وأصبح اسم محمد عنده، وعند غيره مرادفاً لكلمة كافر أو زنديق، ولقد كان محمد في نظر كتّاب العصور الوسطى تارة ساحراً وتارة أخرى فاجراً شنيعاً ولصاً يسرق الإبل، وكاردينالاً لم يفلح في أن يصبح بابا فاخترع ديناً جديداً أسماه الإسلام لينتقم به من أعدائه، وصارت سيرته رمزاً لكل الموبقات وموضوعاً لكل الحكايات الفظيعة». (٤٤)

ولم يحدث أن سعى الغرب لمراجعة مواقفه وتغيير أسلوب تعامله مع المسلمين، فموقفه العدائي هو الأصل الراسخ، وصراع الغرب مع الإسلام «هو صراع لا يمكن أن يصل إلى حل؛ لأنه صراع بين مواقف نهائية. إن الغرب يرى في الإسلام خطراً عليه، ثم إنه لا يعترف بأنه دين سماوي، دعنا مما يقال في المناسبات للمجاملة، إنه يرانا متخلفين ومكامن للإرهاب قد تنفجر فيه في أي وقت. العناصر الأكثر حكمة ترى رؤية أخرى لكن النتيجة لا تختلف؛ إذ إنها ترى أن الإسلام هو النظام الوحيد القادر على تقديم منظومة فكرية منافسة للغرب، وذلك يجعلهم يصلون إلى ذات النتيجة، وهي أن الإسلام دين خطر، ويجب مواجهته وتحجيمه». (٤٥)

ليس معنى هذا أن الحضارات الأخرى ليس بها روح الصراع، إنما لم تكن ظاهرة مرضية سادية كما هو واضح بقوة في الحضارة الغربية. فالحضارات الأخرى كان يغلب على معظمها الطابع الإنساني والسلمي. ولم تكن الروح الاستئصالية موجودة بها بهذا الشكل المرعب؛ إذ تعايشت باقي الحضارات واستوعب بعضها بعضاً. فالحضارة الإسلامية على سبيل المثال تعاملت بعلم وعدل مع الشعوب والحضارات الأخرى ولم تلغها.

لكن ثمة ملاحظة مهمة، وهي أن عهد الفتوحات الإسلامية لم يسجل مذابح ومآسٍ كالتي فعلها الغربيون مع شعوب العالم. فالشعوب استقبلت الإسلام طواعية بدون إجبار. وتسامح المسلمون مع من ظلوا على دياناتهم، ولم يكرهوهم على الدخول في الإسلام. كانت المعارك قليلة بالمقارنة بالمساحات الشاسعة التي فتحتها الجيوش الإسلامية، كما أن الخسائر البشرية للمعارك تكاد لا تذكر بالمقارنة مع معارك الغرب. إن مجموع القتلى في الفتوحات الإسلامية كلها ربما لا يساوي خسائر معركة صغيرة من معارك الأوروبيين.

و«لن تنسى ذاكرة التاريخ ما وقع في فتح سمرقند عندما استعدى أهلها عمر بن عبد العزيز على القائد الفاتح؛ لأنه دخل عليهم ديارهم قبل دعوتهم إلى الإسلام، فأمر قاضيه أن يُنصفهم، ففضى ببطان الفتح، وإخراج الجيوش الفاتحة المنتصرة خارج سمرقند، حتى تستوفي إجراءات الفتح كافة، كما جاءت في النصوص الشرعية، وانسحبت القوات فعلاً، وكان ذلك سبباً في إسلام أغلب أهل سمرقند!». (٤٦)

وبعكس ما فعله الغرب مع باقي الحضارات والأمم من تدمير وإفناء، فقد «كانت للمسلمين إسهامات كثيرة في الثقافة الأوروبية. فلقد احتفظوا بعدد كبير من المخطوطات الإغريقية القديمة حتى غدت في متناول يد العلماء الأوروبيين. ولهم أيضاً إسهامات كثيرة في دراسة الرياضيات والطب، كما أدخلوا النظام العددي العربي المعمول به حتى يومنا هذا في أوروبا... بدأت العلوم البحتة والتطبيقية عند العرب والمسلمين بحركة الترجمة التي نشطت في أواخر القرن الأول الهجري، السادس الميلادي، واستمرت في الازدهار والعطاء حتى بداية القرن الثامن الهجري، الرابع عشر الميلادي. ولم يكن العرب في ترجمتهم لتراث الأمم التي أخذوا عنها العلوم الطبيعية نقلة جامدين، لكنهم أضافوا إليها كثيراً، وجعلوا ما توصل إليه غيرهم مقدمة أساسية لأبحاثهم. وقد أبدعوا في بعض العلوم. وكانت بواعث ذلك ما بنه الدين الإسلامي من أفكار، وما أحدثه في نفوس معتنقيه من حب العلم والتأمل

في الكون، إضافة لتشجيع الحكام الذين أحبوا العلم وأكرموا العلماء على الإبداع. ثم إن الفتوحات الإسلامية كانت عامل التقاء بين الثقافة العربية وثقافات الشعوب التي دخلت الإسلام. كما أن حاجة العرب إلى علوم ليست عندهم جعلتهم يقبلون على الترجمة. وحيث إن العلم من توابع الاستقرار والحضارة، فما أن استقرت الدولة العربية الإسلامية وازدهرت سياسياً واقتصادياً حتى اتجهت النفوس إلى الحركة الفكرية؛ فترجمت الكتب الإغريقية والفارسية والسريانية والقبطية والكلدانية،

ونُقلت ذخائرها في العلوم إلى العربية». (٤٧)

لا يمكن إغفال أن ترجمة بعض الكتب الفلسفية ونشرها على نطاق واسع كان له نتائج سلبية في حينها، خاصة قبل أن ينتبه علماء المسلمين لهذا النوع من الفكر الجدلي. وقد سببت هذه الكتب بعض الفتن في البداية، أبرزها ما حدث في عهد المأمون

صاحب بدعة خلق القرآن الذي نشطت في عهده حركة الترجمة، وتأثر بالكتب اليونانية حتى إنه كان يحلم بأرسطو في المنام، وهو الذي سجن الإمام أحمد بن حنبل الذي تصدى لهذه البدعة. «ولقد دخل المأمون - في عنف - الخصومة الخاصة بخلق القرآن، وأصبحت المسألة بالنسبة له، على أعظم جانب من الأهمية، ومن الجائز أنه رأى مما يساعده في نصرته رأيه: ترجمة الكتب اليونانية الخاصة بالإلهيات». (٤٨)

تصدي علماء الإسلام كالغزالي وابن تيمية وغيرهما فيما بعد للأفكار الفلسفية المتعارضة مع الإسلام، وكان دورهما بارزاً في إنهاء حالة الجدل التي شغلت بعض المسلمين فترة من الزمان.

لكن التوازن بين المسلمين والأوروبيين اختل مع ضعف الدولة الإسلامية، وتراخي قبضة الحكم لاتساع الرقعة الجغرافية، ودخول أمم وأعراق لم يتح لها الالتحام الكامل مع القلب لتقويه وتقويه به. عندها ظهر فكر الصراع الغربي مجدداً ليهدد الجسد الإسلامي بأشكال أكثر ضراوة ظهرت في الحملات الصليبية ثم في الحملات الاستعمارية التي كانت البداية لغزو العالم كله.

اختل التوازن بين المسلمين  
والأوروبيين مع ضعف الدولة  
الإسلامية وسقوط الخلافة

## سادساً: تصدير الصراع

اندفع الأوروبيون لغزو العالم مع تفوق الغرب عسكرياً وحياسة الأسلحة الأكثر فتكاً. وداسوا في طريقهم شعوباً وحضارات، واستخدموا القوة لحكم الدول الراضة لهم. يشهد التاريخ المعاصر ظهور ثلاث موجات متتالية من الهجمات الغربية على العالم، وتتلخص هذه الهجمات في الحروب الصليبية والحملات الاستعمارية، ثم الحروب الاستباقية. ما حدث في هذه المحطات من خسائر كلف البشرية الكثير على حساب عقائدها وأمنها ورفاهتها. أشاعت تلك الحروب الكراهية والعداءات الدينية، وبذرت التقسيمات الجغرافية والسياسية في حروب بين الجغرافيات والأعراق لازالت ترهق الشعوب حتى اليوم. كان الدافع الديني هو المحرك الأبرز وراء الحروب الصليبية؛ إذ توحدت أوروبا تحت راية الصليب. أما في الموجة التالية، وهي الموجة الاستعمارية فقد اختلط الدافع الديني بالاقتصادي. وفي المواجهة المعاصرة -ولعلها الأخيرة- اختلط الديني بالاقتصادي مع الرغبة في الهيمنة والسيطرة على العالم في الحروب الاستباقية. ولعله من المهم أن نبرز كيف ساهم فكر الصراع في هذه الموجات الغربية الثلاث، وهو ما سيوضحه الجزء التالي من هذا البحث.

### ١ - الحملات الصليبية :

تعتبر الحملات الصليبية خلال القرنين الخامس والسابع الهجريين، الحادي عشر والثالث عشر الميلاديين أكبر اختراق للعالم الإسلامي منذ قيام الدولة الإسلامية. فقد ضرب الضعف الخلافة في ذلك الوقت وتمزقت أوصال الدولة؛ فاستغل الأوروبيون الفرصة لينقضوا على قلب الأمة. فرَّغ الأوروبيون طاقة الصراع المتغلغلة داخلهم الحملات الصليبية ضد المسلمين. وقد «نظم الغزاة القادمون من أوروبا الغربية ثماني حملات رئيسية، فيما بين ٤٩٠ و٦٦٩ هـ، ١٠٩٦ و١٢٧٠ م. وتعد تلك الفترة هي فترة توسع اقتصادي لأوروبا الغربية وزيادة قواتها المسلحة. وكان الصليبيون جزءاً من الحركات التوسعية النصرانية الواسعة. وكسب الصليبيون بعض المعارك، وأسسوا ممالك صليبية على طول الساحل الشرقي للبحر المتوسط». (٤٩)

اتفق الأوروبيون رغم التناقضات والخلافات بينهم حيث «انطلق الرهبان يجوبون شمال

أوروبا ليدخلوا أهلها من الهمج الهامج في النصرانية.. وجاءت سنة ١٠٩٦م، (٤٨٩هـ) وجيشت الجيوش من الهمج الهامج من النزمنديين والصقالبية والسكسون بقيادة الرهبان وملوك الإقطاع» (٥٠).

كانت الحملات الصليبية تهدف أيضاً لتنصير الأوروبيين الوثنيين الذين كانوا ينتشرون في ربوع القارة. وقد حاربت الحملات الصليبية في بدايتها القبائل الأوروبية التي رفضت اعتناق الديانة، أو التي كانت مسيحية لكنها ترفض المذهب السائد، وتم القضاء عليها. يسجل التاريخ أن الأوروبيين في حملاتهم الصليبية لم يتورعوا عن ارتكاب المذابح ضد كل من وقف أمامهم. فقد استهدفت هذه الحروب «الشعوب المنشقة كالأريوسيين والكاتار، لإبادتها.. وامتدت هذه الحروب شرقاً وغرباً لنشر مسيحيتها بالسيف والمذابح وبمحاكم التفتيش؛ وما أكثر المراجع التي تتناول هذا التاريخ الدامي الذي وصم الحضارة الغربية المتعصبة» (٥١).

اتسمت الحملات الصليبية بطابع ديني للبعض أو أنها استخدمت الدين للنهب وإطفاء شهوة الصراع للبعض الآخر، واقتصرت على منطقة جغرافية محدودة. نتج عنها تفكيك الشام؛ إذ أقيمت به أربعة ممالك صليبية. وقد استطاع صلاح الدين الأيوبي هزيمة الصليبيين في معركة حطين (٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م). وأعطى الأمان لمن تبقى من الأوروبيين في القدس وبعض المدن؛ فعادت إلى سابق عهدها تنعم بالسلام. لكن الرغبة في العدوان تواصلت. ومع النهضة الصناعية وتنامي الرغبة في السيطرة على ثروات العالم، تطور الهجوم الأوروبي واتسع، وبدأت الحملات العسكرية ضد العالم كله، وخرجت الجيوش من دول أوروبا مرة أخرى في الموجة الثانية لغزو الكرة الأرضية فيما عُرف بالحملات الاستعمارية. في هذه الحملات اختلطت الدوافع الدينية مع الاحتياجات الاقتصادية، فكانت أكبر عملية غزو وسطو ونهب يشهدها العالم، ولا زالت الآثار المترتبة عليها مستمرة حتى الآن.

## ٢ - الاستعمار:

ترجمت الحملات الاستعمارية فكرة الصراع عند الغربيين. فقد أظهرت روح العدوان بأوضح صورها، وكشفت عن الرغبة في السيطرة وامتلاك الأرض والبشر. استباح الأوروبيون كل شيء، واحتلوا دول العالم وقتلوا شعوبها ونهبوا ثرواتها، واستعبدوا أمم إفريقيا وساقوا



الملايين من السود إلى العالم الجديد.

وقد « أعطى الغرب الاستعماري، منذ خمسة قرون مثال التطرف الأكثر فتكاً، وهو الادعاء بامتلاك الثقافة الوحيدة الحقيقية، الدين العالمي الوحيد، نموذج التنمية الوحيد، مع نفي أو تدمير الثقافات الأخرى، الديانات الأخرى، النماذج الأخرى للتنمية ... برر الغرب تسلطه على العالم، ونهبه لثرواته، وقمعه لحرياته باختلاقات كثيرة، منها ما كان باسم رسالته في قيادة العالم، ومسؤوليته في نشر الحضارة، بل وفي بعض الأحيان نشر المسيحية». (٥٢)

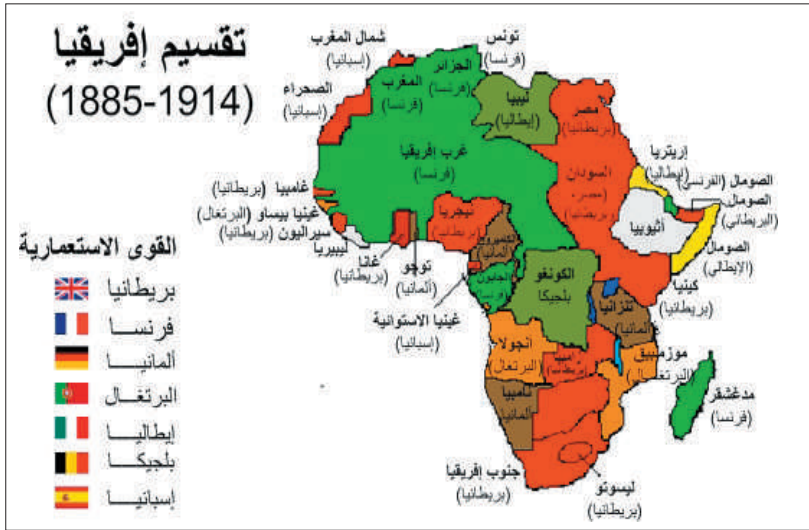
كان انتقال الخلافة الإسلامية من المماليك «مصر» إلى العثمانيين في طرف الأمة الشمالي «تركيا» له تأثيره. ترتب على هذا الانتقال تركيز القوة شمالاً، وضعف القلب «العالم العربي»، وامتد الضعف إلى الأطراف فأصبحت بالرخاوة وضعفت مناعتها.

ركز الأوروبيون جهدهم العسكري تجاه الجنوب الغربي مع عجزهم عن مواجهة العثمانيين في الشرق، فسقطت الأندلس بعد فتح القسطنطينية بأربعين عاماً، وارتكب الأوروبيون فظاعات ضد المسلمين، أبرزها ما عُرف بـ «محاكم التفتيش»، وأنهوا الوجود الإسلامي بعد أن حكمها الإسلام ثمانية قرون. كان انتصار الأوروبيين على المسلمين في الأندلس وسقوط غرناطة في ١٤٩٢ م بداية لانكسار لم يجبر حتى الآن؛ إذ انطلقت جيوش الصليبيين من بلاد أوروبا تطوق العالم الإسلامي، ولتبدأ مرحلة أخرى من الحروب باحتلال البلاد الإسلامية وغزو العالم.

اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح الذي فتح الطريق أمام الأوروبيين للانطلاق حول إفريقيا وآسيا. « وعندما ذهب البرتغاليون إلى الهند كانت إسلامية، وكانت تحكم حكماً إسلامياً في ذلك التاريخ. ولم يكن الوعي غائباً عند المماليك، وإنما كانوا يدركون أنها حركة التناف حول العالم الإسلامي، ليس فقط لتحويل طرق التجارة، وإنما كانوا يدركون المخاطر الاستراتيجية التي يبتغيها الغرب، ولذلك لم يكن غريباً أن تخرج الجيوش المملوكية من مصر لتقاتل البرتغاليين في الهند في ذلك التاريخ، وهزمت الجيوش المملوكية في ١٥٠٤ أي بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح بأقل من ٧ سنوات». (٥٣)

كان الهجوم على العالم شاملاً. وتم تقسيم الأمم بين الغزاة الذين استباحوا في طريقهم كل شيء. وانتقل القراصنة الأوروبيون من السطو على السفن في البحار والمحيطات إلى السطو على الجغرافيا والإنسان ذاته. و«بدأت مرحلة ضرب قلب العالم الإسلامي، فنجد

## خريطة رقم (٢) : الأوروبيون وتصدير الصراع باسم الاستعمار



المصدر : <http://www.eurohist.com> . تظهر الخريطة اجتياح الأوروبيين للقارة الإفريقية وتقسيمها بين القوى الاستعمارية، وتشير إلى أن أثيوبيا وليبيريا لم تخضعا للاحتلال في هذا الوقت ، فأثيوبيا لدورها الديني كقلعة قديمة للمسيحية، وليبيريا أنشأها المستعمرون للعبيد السود الأمريكيين المسيحيين المحررين ، إلا أن أثيوبيا خضعت للاستعمار الإيطالي ١٩٣٦ الذي تم طرده ١٩٤١ بمساعدة بريطانيا.

بونابرت الذي جاء إلى مصر في عام ١٧٩٨ ، ثم فريزر في ١٨٠٧ ، والجزائر احتُلت في ١٨٣٠ ، ثم عدن ١٨٣٨ م ، ثم تونس ١٨٨١ ، ثم مصر ١٨٨٢ ، ثم ليبيا ١٩١١ ، ثم المغرب ١٩١٢ ، ثم عموم البلوى في سايكس بيكو التي قسمت ما بقي من عالمنا العربي ١٩١٦ ، وثم الذروة عند سقوط الرمز «الدولة العثمانية» في ١٩٢٤ . إذن صراع الغرب مع الإسلام منذ خمسمائة عام على طرد الإسلام من أوروبا، وعلى بدء هذه الغزوة الصليبية التي بدأت بالانتفاخ حول العالم الإسلامي حتى جاء في العشرينيات وعلى أعتاب الحرب العالمية الأولى حيث أعلن سقوط كافة أنحاء العالم الإسلامي تقريباً أمام الهيمنة الغربية .» (٥٤)

هنا لا يمكن إغفال بُعد مهم ، ونحن نتناول الحملات الاستعمارية، فمع «وجود أطماع اقتصادية هائلة لأوروبا في الشرق الغني بالخامات والموارد؛ فإن هذا لا ينبغي أن يُخفي عنا مجموعة من الملاحظات في هذا الشأن:

**الأولى:** أن الباعث الصليبي كان هو الباعث الأول الذي حرك أوروبا إلى الاستيلاء على العالم الإسلامي، كما هو ظاهر من رحلتي فاسكوداجاما وماجلان، والرحلات الاستكشافية الأخرى في إفريقيا خاصة - التي حملت المبشرين بكميات هائلة إلى أماكن لم يكن الاستغلال الاقتصادي فيها محدد المعالم أول

الباعث الصليبي كان هو المحرك  
الأول الذي حرك أوروبا إلى  
الاستيلاء على العالم الإسلامي

الأمر، وإن كان قد حدث على نطاق واسع فيما بعد، حين اكتشف المحتلون مصادر الثروة وأخذوا في استغلالها.

**الثانية:** أن التحرك الاقتصادي الأول من أوروبا نحو الشرق كان ضمن أهدافه حرمان المسلمين من مصادر قوتهم لإضعافهم، وهو هدف فكري وعقدي وليس اقتصادياً فقط، وتتخذ له جميع الوسائل، وما الوسيلة الاقتصادية إلا واحدة من هذه الوسائل فحسب.

**الثالثة:** أنه حين برز العامل الاقتصادي في حياة أوروبا فيما بعد، وأصبح - في ظاهر الأمر - هو المحرك الأول لجميع تصرفاتها، بقي هناك فارق واضح بين «الاستعمار الاقتصادي» في بلاد الإسلام، والاستعمار الاقتصادي في البلاد غير الإسلامية التي استولوا عليها في مرحلة التوسع وتكوين الإمبراطوريات. ومن المهم ملاحظة هذا الفارق الذي يحتاج إلى تفسير. كان الاستعمار الغربي لا يتعرض لعقائد الناس وأفكارهم وتقاليدهم في البلاد غير الإسلامية بشيء من العنف على الإطلاق، مكتفياً بما يتسرب إلى حياتهم تدريجياً من التأثير الناشئ من رغبة المغلوب في تقليد الغالب. أما في البلاد الإسلامية فقد كانت هناك دائماً تدابير وترتيبات يقصد بها إزالة مظاهر الحياة الإسلامية، ومحاولة سحق الإسلام في نفوس المسلمين بالعنف، أو صرفهم عنه صرفاً خبيثاً مأكراً بوسائل أخرى غير العنف» (٥٥).

حرص الغرب منذ الحملات الاستعمارية وحتى الآن على الهيمنة على العالم، خاصة الإسلامي. ورغم سحب وتخفيف الوجود العسكري إبان حركات الاستقلال في

الخمسينيات والستينيات، فإن الغرب نفذ العديد من الإجراءات التي حافظت على استمرار الهيمنة السياسية والاقتصادية والثقافية. لكن مع ظهور وتنامي الحركات الإسلامية، وتصادد الدعوة للاستقلال الكامل عن الغرب، وإعادة بناء الدولة الإسلامية، بدأ الغرب يكثف من وجوده العسكري لفرض سيطرته. وتطور عندئذ الأمر إلى المبادأة بالاعتداء على المسلمين لإجهاض أي قوة ناشئة يمكن البناء عليها.

### ٣- الحروب الاستباقية:

بدأ العالم الغربي المدمن للصراع يبحث عن عدو جديد مع نهاية الحرب الباردة، وتفكك الاتحاد السوفيتي، في بداية التسعينيات، فاختار الإسلام. من أجل ذلك عقدت المؤتمرات والندوات، وصدرت التصريحات تلو التصريحات، ثم أعلنت الاستراتيجيات والخطط لحشد التأييد الغربي للمواجهة مع العدو الجديد، الذي بالغوا في تضخيم خطره لتجهيز حلبة المصارعة للقضاء عليه.

إن الغرب في حاجة دائماً إلى عدو خارجي، ولذلك تم استدعاء الإسلام والأمة الإسلامية مجدداً إلى الصراع. كان هناك إصرار من العديد من الدوائر والأوساط السياسية الأمريكية والغربية على افتعال معركة مع الإسلام وتصويره على أنه التهديد الخطير القادم من الشرق، وتوج هذا الإصرار بمقالة صمويل هانتنجتون «صدام الحضارات» والتي نشرها في مجلة فورين أفيرز، ثم أصدرها في كتاب مستقل. تقوم فرضية هذه المقالة على أن الحرب العالمية القادمة ستكون بين الحضارات العالمية، وحصرها بين الحضارة العربية والإسلامية والحضارة المسيحية الغربية، وأن أسس الصراع القادم ستكون ثقافية ومرتبطة بالموضوع الثابت عبر القرون وهو موضوع الهوية الحضارية للأمم، والتي تتأسس في بُعدها البنيوي الثابت على الدين.

لَوْح هانتنجتون - أبرز منظري الصدام والصراع المعاصرين - في مقالته السابقة بخطر الحركات الإسلامية، والدعوة إلى مواجهتها قبل أن تمتلك أدوات القوة العسكرية. والمشكلة الحقيقية أن مقالة هانتنجتون قد لقيت تأييداً وتنفيذاً من أصحاب القرار في الولايات المتحدة، وبدأت تسيطر بشكل كبير على تفكيرهم، وانتقلت هذه التصورات إلى وسائل الإعلام الأمريكية التي بدأت بتعزيز صورة نمطية عن الحركات الإسلامية في

المخيلة الاجتماعية الأمريكية ضد الإسلام والمسلمين.

كان لروح الصراع دورها في تطوير الهجوم واستهداف الدول الإسلامية التي ترفض التبعية الكاملة للغرب وتضييق الخناق عليها. وفي هذا الإطار وضعت أمريكا قائمة حمراء لهذه الدول أطلقت عليها اسم «الدول المارقة». وتم ضم دولتين غير إسلاميتين «كوبا وكوريا الشمالية» للقائمة، لتمردهما على الهيمنة الغربية وللضغط عليهما، ومنعهما من تقديم أي دعم في مجال التسليح للدول الإسلامية.

### أ- الدول المارقة:

دفعت روح الصراع الغرب لاختيار مجموعة من الدول النامية؛ لتكون هدفاً للصراع معها، وتم إعلان الحرب على دول ضعيفة تسعى للاستقلال. بدأت الولايات المتحدة في التحرش بالدول الإسلامية بشكل خاص، وقد بدأت أمريكا هذه الدول بالعدوان بحشد الدول الغربية المتحالفة معها لحصارها وتضييق الخناق عليها. وفي هذا الإطار هاجمت أمريكا ليبيا والسودان وأفغانستان والعراق بالصواريخ خلال الثمانينيات والتسعينيات، ثم غزو الدولتين الأخيرتين واحتلالهما عسكرياً مع بداية الألفية الجديدة.

تسببت روح الصراع في غزو عسكري كامل لأفغانستان والعراق في عهد إدارة بوش؛ بمشاركة تحالف من معظم دول الغرب. وتم استدعاء نظرية «الحرب العادلة» مرة أخرى؛ لإعطاء مشروعية للصراع ولتبرير ضرب الدول الإسلامية، بحجة منع حدوث تقاطع بين الجماعات الإسلامية وحكومات هذه الدول المتمردة وتهديد الغرب.

وأصبح مصطلح «الحرب العادلة» ودلالاته الدينية هو السائد على لسان قادة الغرب المعاصرين والنخبة بمعظم أطيافها؛ إذ لوحظ أن الرغبة في الصراع ليست مرتبطة فقط بالحكومات الغربية وصناع القرار السياسي فيها، إنما موجودة لدى النخبة ورموز الهيئات الشعبية. فقد أعد معهد القيم بالولايات المتحدة الأمريكية بياناً في فبراير ٢٠٠٢، وقّع عليه ستون من كبار المفكرين والفلاسفة والشخصيات بعنوان «على أي أساس نقاتل» أيدوا فيه حرب أمريكا ضد المسلمين، ووصفوها بأنها «الحرب العادلة».<sup>(٥٦)</sup>

عبر الموقعون عن الرؤية الصراعية التي تسيطر على العقل الغربي، وأعطوا العدوان على مدن المسلمين الغطاء والمشروعية الأخلاقية. قال المثقفون الأمريكيون: «إننا نعلم بمقتضى

العقل ومن خلال التأمل الدقيق في الأخلاق أن في بعض الأحيان يكون أول وأهم ما يقام به لمواجهة الشر هو إيقافه ، وفي بعض الأوقات لا يكون الشروع في الحرب جائزاً فحسب بل واجباً أخلاقياً» (٥٧)

تكشف الأسباب التي يطرحها المثقفون الأمريكيون أنهم لا يستطيعون الفكاك من أسر الصراع، وتوضح ضعف الحس الإنساني الذي يظهر في مناحي أخرى، بتبرير العدوان على المدنيين بحجة صيانة الأبرياء. لقد استندوا إلى التراث الديني القديم فقد رأوا «أن المبرر الأخلاقي الرئيس للحرب هو صيانة الأبرياء من الضرر الأكيد. وأشاروا إلى كتاب أوغسطين (مدينة الإله) واستندوا إلى ما قاله وهو يقرر المعنى الذي أتى به سقراط: إن الأحسن للفرد النصراني أن يتأذى بالضرر من أن يؤذي غيره به، ولكن هل يجدر بصاحب المسؤولية الأخلاقية أن يلزم غيره من الأبرياء بترك الدفاع عن أنفسهم؟ الجواب عند أوغستين وعامة أصحاب فكرة الحرب العادلة هو أن ذلك الإلزام غير صحيح. إذا أقيمت الحجة على أن الأبرياء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم سيصيبهم ضرر هائل إن لم تستخدم قوة القاهرة لإيقافه. في هذه الحالة يدعونا المبدأ الأخلاقي لحب الجار إلى استخدام القوة». (٥٨)

وعندما رد مجموعة من العلماء والمفكرين المسلمين في بيان بعنوان «على أي أساس نتعايش؟» (٥٩) طرحوا فيه فكرة التعايش بدلاً من الحرب، لم يتجاوب الطرف الآخر وتمسكوا بموقفهم المؤيد للعدوان وللحرب ضد المسلمين.

لكن ومع حب الغرب للصراع؛ فإنه لا يستطيع شن حروب عسكرية ضد كل الدول الإسلامية في وقت واحد. لذا فإنه ينوع أساليب الحرب تحت الاضطرار، ويُجِيش كل ما هو متاح في الإجراءات الاستباقية. في هذا الإطار ابتكر الغرب الحرب على ما يسمى «الإرهاب» لاحتواء ظاهرة عودة المسلمين إلى الدين، ومواجهة الحركات الإسلامية التي تريد إعادة الخلافة الإسلامية مرة أخرى كوعاء يستعيد القوة الإسلامية.

## ب- مطاردة الإسلاميين :

لم تبدأ الصحوة الإسلامية المعاصرة أي مواجهة أو صراع مع أمريكا والغرب منذ ظهورها الحديث. بل إن الجهاد في أفغانستان، وتقاطع أهداف الإسلاميين بإسقاط الحكم الشيوعي

مع مصالح أمريكا بالخلاص من عدوها اللدود جعل أمريكا تؤيد المجاهدين إلى أن انتهت الحرب. بعد ذلك انقلبت عليهم وسعت لتحجيمهم؛ خشية أن يتمكنوا من إقامة حكومات إسلامية تهدد استقرار مشروع الهيمنة الغربية المفروض بقوة السلاح على المسلمين. سعت الولايات المتحدة الأمريكية منذ الثمانينيات لحشد تحالف عالمي للصراع مع المد الإسلامي تحت شعار «مكافحة الإرهاب»، ورصدت ميزانيات ضخمة وشكلت منظمات أمنية وأطراً مؤسسية لتجنيد العالم في معركة المطاردة والمحاصرة. وحرّضت أمريكا دولاً وحكومات للانخراط معها في هذه الحرب، وقدمت المعونات والخبرات الفنية لتكتيف دول العالم وإجبارها على المشاركة. كما استطاعت الولايات المتحدة إدخال المنظمات الدولية في الصراع، واستخدمت الأمم المتحدة لإصدار التشريعات والمواثيق لإلزام العالم بالتورط في المعركة.

### ج- منع تكون نواة إسلامية:

في إطار صراع الغرب مع الإسلام، تستهدف الهيمنة الغربية على المسلمين فيما تستهدف استمرار التبعية السياسية والاقتصادية والثقافية، ومنع عودة الإسلام للحكم. ولا يعني انسحاب الدول الاستعمارية أن الدول التي استعمرت قد تحررت من هيمنة المستعمر. الغرب لا يخفي أنه لن يترأخى في مواجهة أي كيان يحتمل أن يكون نواة لتجمع إسلامي، يعيد الدولة الإسلامية مرة أخرى. ولهذا فإن الدول قليلة العدد التي لها ميول استقلالية أو صبغة إسلامية تعاني من الحصار والتطويق بوسائل عدة، ويعمل الغرب على عزلها عن محيطها.

من هنا فإن صعود الإسلام إلى الحكم وبناء الدولة على تعاليم العقيدة الإسلامية يشكل خطراً لا يمكن التهاون معه من وجهة النظر الغربية. لهذا فإن المبادرة من الغرب بالصدام والمواجهة كانت مبكرة لمنع تشكيل النواة. وهذا التوجه القديم الجديد يأتي؛ لأن «الدول الغربية تدرك الخطورة الكامنة في منطقتنا، فهي تدرك قيمة الإسلام كرسالة حضارية توحيدية أكثر من إدراك أغلبنا لهذه الأهمية، وهي تدرك خطورة الكتلة الجغرافية السكانية لمجموعة الدول الإسلامية، وتدرك أثر هذه الكتلة ورسالتها على التوازنات العالمية إذا هيئ لها أن تنهض، ولهذا فإن عيونهم مصوبة علينا بشكل خاص».<sup>(٦٠)</sup>



## د- صعود البروتستانتية والحروب:

لا يمكن إغفال الدور الذي لعبه الدين في إذكاء الصراع عند الغرب، خاصة المذهب البروتستانتي بطبعته الجديدة، وتأثيره العدائي على السياسة الغربية. يعتقد البروتستانت في العودة الثانية للمسيح والحكم الألفي الذي ورد في سفر الرؤيا، وهذه العودة - حسب فهمهم - تسبقها حروب مدمرة تنتهي بحرب هرمجدون في فلسطين التي سيقتل فيها الملايين، وأن هذه الحرب وهذا الدمار أمر حتمي كي يعود المسيح ويحكم الأرض لمدة ألف عام. ويعتقد البروتستانت أن تجميع يهود العالم وإقامة الهيكل مقدمة لهذه العودة.

إن «الاعتقاد بأن عودة اليهود متسقة مع النبوءة ليس رأياً محابياً لليهود حسبما يبدو؛ لأن بقية النبوءة تشير إلى تحول اليهود القادم إلى المسيحية، وبذلك يوفون بأحد الشروط الضرورية للقدوم الثاني للمسيح» (٦١)

وكانت هذه العقيدة التي اعتنقها الإنجليز وراء ظهور وعد بلفور، ومنح فلسطين للعصابات

اليهودية بقوة السلاح والاحتلال العسكري. والدعم الغربي اللامحدود للكيان الصهيوني ليس لأسباب مصلحية، أو تكفيراً عن جرائم النازي كما يردد البعض، وإنما لأسباب عقائدية سابقة على جلبهم إلى الأرض المقدسة بقرون طويلة.

ففي «منتصف عام ١٦٠٠، بدأ البروتستانت كتابة معاهدات تعلن بأن على جميع اليهود مغادرة أوروبا إلى فلسطين. وأعلن أوليفر كرومويل -بصفته راعي الكومنولث البريطاني، الذي أنشئ حديثاً- أن الوجود اليهودي في فلسطين هو الذي يمهد للمجيء الثاني للمسيح» (٦٢)

وقد «اعتبر اللاهوتيون البروتستانت، مع بداية القرن السابع عشر خاصة في إنجلترا وسكوتلندا وألمانيا وهولندا أن التاريخ الإنساني قد قارب على النهاية، ومن ثم فإن من واجب الدول المسيحية أن تستعد لتلك الأحداث العظمى. وانعكس كل ذلك، في إعادة الاعتبار لليهود من منطلق دورهم المركزي في خطة الرب لنهاية التاريخ» (٦٣)

صعود الإسلام إلى الحكم وبناء الدولة على تعاليم الإسلام يشكل خطراً لا يمكن التهاون معه من وجهة النظر الغربية

وحملت أمريكا لواء البروتستانتية بعد تراجع الإمبراطورية البريطانية، وواصل المؤمنون بعقيدة نهاية الزمان في الولايات المتحدة العمل لتنفيذ ما يزعمون أنها « خطة الرب » بإشعال الحروب في كل مكان وخاصة ضد العالم الإسلامي.

لا خلاف بين الأمريكيين المتدينين والأمريكيين العلمانيين. فهم سواء في اعتناق ذات العقيدة. لا فرق بين آراء جيرى فالويل وبات روبرتسون وغيرهما من قادة اليمين المسيحي، وآراء مفكرين علمانيين مثل فرانسيس فوكوياما صاحب (نهاية التاريخ) وصمويل هنتنجتون صاحب (صدام الحضارات) فالفرق الأول يؤصل لحرب هرمجدون برؤية دينية بينما يتبنى الفريق الثاني ذات العقيدة ولكن برؤية علمانية.

لكن وصول المحافظين الجدد لقيادة الولايات المتحدة في بداية الألفية الثالثة. زاد من اندفاع الغرب تجاه الصدام؛ واتسعت المواجهة مع الدول الإسلامية بشكل غير مسبوق. وظهر دور الدين كمحرّض وكمحفّز للغرب في التحالف العسكري والمشاركة في تطوير المسلمين. إن الموقف الغربي المعادي تجاه الاسلام لم يكن أبداً رد فعل، وليس وليد أحداث استثنائية. لقد كانت روح الصراع هي التي تدفعهم دوماً لشن الحروب. هكذا فعل البيزنطيون الأرثوذكس ومن بعدهم، جاءت (الكاثوليكية المحاربة) لتجعل خلاص المسيحيين في الحرب، ثم رفعت البروتستانتية شعار تدمير الكون لعودة المسيح. إن «كهنتهم يبشرون بإله الغضب والانتقام والحرب. إنهم يعلنون أن الله لا يريدنا أن نعمل من أجل السلام، إنما يطلب منا أن نشن حرباً نووية تدمر الكرة الأرضية». (٦٤)

من هنا فإن الحروب الأخيرة التي أشعلها الغرب عقب أحداث سبتمبر ٢٠٠١ لا يمكن النظر إليها على أنها رد فعل، أو عزلها عن المعتقد والسلوك الصراعى للغرب مع المسلمين. فالعداوة سابقة على هذا التاريخ. والاستعداد للحرب كان مَبْنِيّاً؛ سواء وقعت أحداث سبتمبر أم لا. لكن التوقيت ربما كان سيأخر قليلاً لو أن ما حدث لم يحدث. وحتى لو كانت تلك التفجيرات ذريعة؛ فإن الانتقام من دول وشعوب بالشكل المأساوي الذي تم لا نجد له تفسيراً إلا أن روح الصراع تجعل الغرب ينزع إلى الاعتداء والإبادة في كل الأحوال.

ولم يعد مقنعاً سعي الغربيين لمسح ما تخترنه الذاكرة من حقائق حول مسئوليتهم عن الصدام مع المسلمين. إن أحداث سبتمبر نتيجة وليست سبباً، وهي رد فعل من منفذها.

فكل المؤشرات والوقائع السابقة لتفجير برجي مبنى التجارة العالمي كانت تصب حتماً تجاه عمليات من هذا النوع. إنها نتاج طبيعي لتاريخ من الصراع والصدام. لكن الملفت للانتباه أن الغرب لم يتناس حب الصراع رغم كل ما حدث ولم يتعامل مع الأسباب، وإنما تعامل مع النتيجة. وبدلاً من السعي لنزع فتيل الأسباب راح يصب المزيد من البنزين على النار. وبدلاً من مراجعة السياسات التي أفضت إلى هذه التفجيرات ذهب إلى الاتجاه الآخر ورفض الاعتراف بأنه السبب، وأنه الظالم وليس المظلوم، وأنه الجاني وليس المجني عليه.

ولم يستوعب الغرب الدرس وساقته الرغبة في المصارعة إلى السير في ذات الطريق الذي يولد ردود أفعال ربما أكثر ضراوة. ويبدو أن الغرب لم يعد يسمع إلا إن شعر بأن قوته لم تعد تجدي نفعاً، ولم تعد تُخيف. وهذا ما بدا من متابعة سير الحرب في أفغانستان والعراق؛ حيث بدأ الغربيون يستوعبون أن خيار الحرب يُسبب خسائر ضخمة وآثاراً معاكسة مؤلمة، لا يحتملون استمرارها فترات طويلة.

### سابعاً: حصد الكراهية وظاهرة الانتحار

تفوّق الغرب العسكري أغراه بالعدوان، وتسببت عقلية الصراع في توريث الغرب في مغامرات عسكرية، فوجئ أنها فاقت قدرته على تحمل اتساعها وامتدادها. فمع كثرة اعتداءات الغرب على المسلمين، ظهرت نقاط الضعف لديه، في نفس الوقت الذي تجلت فيه عناصر القوة في الطرف الآخر. وقد ثبت أن الإفراط في استخدام القوة يضعف تأثيرها مع الوقت، ولا تجلب الصراعات النصر دوماً. فلكل قوة طاقة قصوى بعدها تضعف وتراجع. ويبين تاريخ الأمم والشعوب أن الدول القوية تأتيها فترات تتراخى وتنتهي. ولا يعني استخدام السلاح الباطش دليل قوة، فقد يكون دليل ضعف أيضاً.

إن إدمان الغرب للصراع واستخدامه لأسلحته ضد الشعوب، والدفع بأبنائه للقتال في العالم الإسلامي دليل على التراجع وليس القوة. فالدول الغربية منذ منح الاستقلال السوري للدول المستعمرة كانت تمرر سياساتها وتدير العالم بالإشارة. وكانت العلاقات الدبلوماسية كافية لإملاء الشروط وتنفيذ الأوامر. لكن هذه القبضة الاستعمارية والهيمنة بدأت تضعف مع عودة المسلمين إلى الدين، وتنامي نزعة التمرد ضد التبعية، فاضطر الغرب إلى تنفيذ سياسة الحصار الاقتصادي والسياسي «العراق، ليبيا، السودان، وأفغانستان» لكن

هذا الأسلوب فقد تأثيره مع الوقت ولم يؤد المطلوب، فبدأ بالاعتداء والقصف من الجو «العراق، وأفغانستان» فاتسع التمرد، فاضطر الغرب إلى الغزو العسكري وتحمل تبعه ذلك من خسائر في الأموال والأرواح.

دفعت روح الصراع الغرب لغزو العراق وأفغانستان لتقديم عبرة وأمثولة لباقي المسلمين، فإذا بالنتائج عكسية. فقد تسبب هذا التقطيع في أوصال الدولتين وتجريب أسلحة الدمار الفتاكة في شعبيهما، وانكشف الوجه العدائي للغرب، تسبب في ردة فعل في الجانب الإسلامي. أيقظت القذائف والصواريخ المتساقطة فوق المدن المسلمة روح المقاومة وأحييت فكرة الجهاد. وغرقت أمريكا الجريحة بتدمير برجها في وحل المعارك، ووجدت نفسها متورطة في مستنقع يأكل أبناءها. وتحول النصر السريع في البداية إلى انكسار واستنزاف فيما بعد. وبدلاً من الاحتفال بالانتصار أصبحت الأمنية هي الانسحاب والفرار. لقد تسببت روح الصراع العدائية لدى الغرب في ولادة روح المقاومة في الجانب الإسلامي، وقوبلت القوات الغازية بروح قتالية لم تكن تتوقعها، ولم تستطع ترسانة الأسلحة الأمريكية كسر عزيمة المقاومين الذين يقاتلون بأسلحة لا تُقارن بما لدى الجيوش الغربية المتحالفة. لم يهرب الهجوم الأمريكي الغربي المسلمين بقدر ما قوى قدرتهم على التحمل وامتصاص الضربات وأفقد الجيوش الغازية هيبتها. ومقابل حشود الجيوش الغربية المتدفقة على مناطق القتال، احتشدت حركات المقاومة الإسلامية هي الأخرى، التي تشكلت من جنسيات عربية وإسلامية عدة وكونت جبهة مضادة، وقد تسبب توسيع ساحة الصراع في خروج المعارك عن السيطرة.

إن القدرة على شن الحروب لا يعني القدرة على إنهاؤها. ربما كانت الصواريخ والقنابل والقصف من الجو مؤلمة للخصم لكنها غير كافية لإنهاء المعركة. فهناك عوامل أخرى تحسم المعارك بجانب الأسلحة والتخطيط العسكري، فقد ظهر العنصر البشري كعامل حيوي في تحقيق النصر. هذا الصمود البشري والتفاني في القتال ربما لا يظهر في بداية المعارك لكن مع استمرار واتساع الحروب التي تحركها عقلية صراعية لا هدف لها سوى قهر الآخرين، تولد عناصر بشرية لا تتأثر بقوة الخصم ولا تبالي بقدرته التسليحية، وتفرض حقائق جديدة تقلب المتعارف عليه في الحسابات الاستراتيجية.

## ثامناً : الغرب ومرض الصراع

يثبت التاريخ القديم والحديث أننا أمام كيان يعاني من مرض مزمن. إن الغرب مريض بداء الولع بالصراع مع الآخر والعدوان عليه، وهذا المرض الذي أَلَمَّ بالغرب تسبب في استنزاف العالم والغربيين أيضاً، وبالتالي على العالم أن يساعد هذا المريض كي يتعافى. أول مرحلة للعلاج أن نشخص المرض، وأن نوضح للمريض حقيقة مرضه. وفي حالة رفض الغرب الاعتراف بذنوبه في حق البشرية وفي حق نفسه، ليس أمام شعوب العالم إلا التكاتف والتصدي له، ووقف عدوانه وعزله ووقف خطره.

إن استمرار مرض الغرب لا يعني أنه سيظل يواصل تأثيره العدائي إلى الأبد، ونحن نرى الآن اتساع ظاهرة التمرد على الهيمنة الغربية، في أمريكا اللاتينية وفي آسيا. لكن التمرد الإسلامي هو الأهم بالنسبة لنا وللعالم، فهو الكفيل بردع هذه الروح الشريرة. وهما نحن نشعر بأن جسد العالم الإسلامي قد بدأ يُكوّن الأجسام المضادة ويُقوّي جهازه المناعي لكبح جنون «فيروس الصراع». وتبدو بقوة إرهابيات عودة الإسلام مرة أخرى كمحرك وكقائد لاستعادة الدولة الإسلامية التي أصبحت ضرورة حتمية لحماية المسلمين وغيرهم، ولإعادة التوازن العالمي المختل.

في المقابل لم يعد لدى الغرب القوة القادرة على مواصلة الصراعات فترات طويلة بسبب الانهيار الذي أصاب الإنسان الغربي الذي سيطرت عليه المادية وملكت كيانه، وجعلته غير قادر على التضحية والقتال. ربما في فترات سابقة كانت المعارك تنتهي لصالح الغرب لفارق القوة ولانهزام الخصوم، لكن اليوم اختلفت الأمور مع كثرة الحروب وبروز إرادة المقاومة وحب الموت عند المسلمين. وهنا الفرق بين إرادتين: إرادة محبة للمتعة والحياة [العاجلة] وإرادة محبة للقتال [والدار الآخرة]. وعند الصدام تنهار الأولى أمام الثانية.

## مقترحات للتعامل مع عقدة الصراع:

إن هذا البحث هو محاولة لكشف طبيعة العدوان في العقلية الغربية وتشخيص المرض بشكل سليم؛ لأن تشخيص هذه الظاهرة خطوة رئيسة نحو التعامل معها. ولن يستطيع البحث طرح تصور شامل لمواجهة روح الصراع الغربية. فهذا يحتاج إلى جهد آخر؛ لأن طبيعة العلاج تحتاج إلى جهود واجتهادات عديدة؛ لخطورة المرض وللطبيعة المعقدة للمريض

نفسه. وقد يختلف العلاج من دولة لأخرى حسب قربها أو بعدها، أو حسب قوتها وضعفها. ويحتاج العلاج إلى جهد الأفراد أيضاً، حسب ملائمة كل منهم وقربه من المرض. لكن ومع هذا يمكن طرح بعض الخطوط العامة التي تساهم في بلورة خطط المواجهة لهذا المرض: \* كشف روح الصراع عند الغرب وإظهار مرضه المزمن حتى يتعامل معه الآخرون بما يفيدهم وبما يؤدي إلى عزل الكيان المريض وتحجيم خطره.

\* ضرورة وقف انتشار روح العداء الغربية ومنع تصديرها إلى شعوب العالم، بتقوية المقاومة ضدها، وإحياء حالة الممانعة فكرياً واجتماعياً وسياسياً، ووقف حملات تحسين صورة الغرب التي يقوم بها البعض عن عمد وسوء نية أو عن جهل وسذاجة بإظهار مزاياه فقط، والتكتم على المشكلات الحقيقية التي يعاني منها.

\* البدء بتحرير البؤر التي تعاني من تصدير الصراع إليها في العالم الإسلامي؛ سواء من تدخلات خارجية في صورة احتلال أو هيمنة، أو تدخلات غير مباشرة في صورة محاولات تغيير السياسات والنظم الاجتماعية.

\* تقديم الدعم لحركات المقاومة لمواصلة الجهاد ضد الغزاة المحتلين، وعدم المبالغة في التفاؤل الذي يؤدي إلى التقصير في تقديم العون والمساندة بزعم قرب النصر، فحركات المقاومة هي طليعة التحرك الإسلامي الشامل لإعادة الاعتبار للأمة واستعادة استقلالها ومواجهة أعدائها.

\* السعي لتوحيد الجهود لإعادة الكيان الإسلامي «دولة الخلافة» لرد الاعتداء وصد العدوان الغربي وتحجيمه وإعادته إلى حدوده القديمة والسيطرة عليه. وهذا الكيان قد يتخذ شكلاً جديداً، وليس بالضرورة أن يتطابق مع أنماط الحكم السابقة في التاريخ الإسلامي. \* التواصل مع الكيانات الحضارية الأخرى في آسيا وأمريكا اللاتينية وإفريقيا؛ لبناء جبهة واسعة للتصدي لروح الصراع الغربية.

\* التحاور والتفاهم مع بعض الغربيين الذين يشعرون بخطورة المرض، ويشاركون في أداء أدوار إيجابية ضد روح الصراع السائدة في الغرب.

## الخلاصة

تفاوتت درجة التسامح والتدافع بين حضارات الكون على مر التاريخ، وبدأت حضارة الغرب وكأنها لا تميل إلى التسامح مع الآخرين. إن الرغبة في الصراع التي سيطرت على العقلية الأوروبية ثم الأمريكية بارزة منذ ظهور أول حضارة في ذلك الجزء من العالم. وكان لوجود الحضارات القوية في الشرق دوره في التصدي لجنوح الغرب، وكبح جماح هذه العقلية الصدامية. لكن ضعف هذه الحضارات وهيمنة الغرب خاصة مع انكسار دولة الإسلام نتج عنه كوارث إنسانية عانى منها العالم. لقد أطلق الغربيون لأنفسهم العنان واجتاحوا العالم، وشنوا الحروب ونشروا الصراعات التي ولدت العداوات في كل مكان. يمكن القول أنه ما لم يعاد التوازن للعالم بعودة الأقطاب الحضارية الأخرى، واستعادة الدولة الإسلامية لموقعها كحائط صد ضد الجنوح، والتصدي لتغول الحضارة الغربية، فإن معاناة البشرية ستستمر.

إن التدافع سنة إلهية لحفظ الحياة على الكرة الأرضية. والتدافع وسيلة لحفظ الحقوق وحماية الشعوب ومنع الجور والتصدي للغرور المدمر لتحقيق التوازن. وهذا التوازن هو الذي يشكل رادعاً للحضارات المتمردة.

إن الغرب كيان مريض، وتسبب ذلك المرض في نشأة حضارة معجونة بالصراع وحب العدوان منذ ولادتها. تشبعت بهذه الروح المتمردة التي تلبستها. منكرة لكل ما عداها. إنها حضارة متخاصمة مع الكون. لا تعرف غير ذاتها. ولا تعترف بغيرها. تبدأ الآخرين بالصدام. لا تعرف العيش بدون عدو. حياتها قائمة على صناعة الخصم واختراعه. إن لم تجد عدواً يتقاتل أبناؤها مع بعضهم البعض. حضارة باسمها اكتوى كثير من شعوب العالم وذاق الويلات.

إننا أمام كيان يعاني من مرض حب الصراع ومدمر للاعتداء وعاشق للقتل. وهذا المريض، كأى مريض، يحتاج إلى علاج لإنقاذ البشرية منه، ولإنقاذه هو أيضاً من براثن ذلك المرض.



## الهوامش:

- ١- د. صلاح الصاوي، من الجوانب الفقهية في علاقة الإسلام بالغرب: ورقة مقدمة لمؤتمر «نحن والآخر»، عقد بالكويت ٢٠٠٦ ص ٢ .
- ٢- فرانسوا بونيون، الحرب العادلة وحرب العدوان، المجلة الدولية للصليب الأحمر، مختارات ٢٠٠٢.
- ٣- هوميروس، الإلياذة، دار العلم، الطبعة الخامسة ١٩٨٢، بيروت، ص ١٦ و ١٧ .
- ٤- المرجع السابق ص ٢٤١ و ٢٤٢.
- ٥- المرجع السابق ص ١١١.
- ٦- المرجع السابق ص ٦٤ .
- ٧- المرجع السابق ص ٦٥ .
- ٨- المرجع السابق ص ٢٤٢ .
- ٩- المرجع السابق ص ٢٤٥ .
- ١٠- المرجع السابق ص ٢٤٥ .
- ١١- الموسوعة العربية العالمية، موقعها على الإنترنت : <http://www.mawsoah.net>
- ١٢- المرجع السابق.
- ١٣- المرجع السابق.
- ١٤- د. حامد سلطان، أحكام القانون الدولي في الشريعة الإسلامية ص ١٠٢ .
- ١٥- المرجع السابق ص ١٠٢ .
- ١٦- الموسوعة العربية العالمية .
- ١٧- مايكل كوربت وجوليا ميتشل كوربت، الدين والسياسة في الولايات المتحدة، دار الشروق ص ١٢٣.
- ١٨- فرانسوا بونيون، الحرب العادلة وحرب العدوان، مرجع سابق.
- ١٩- د. محمد عارف، صعود البروتستانتية الإيفانجليكية في أمريكا، الشروق الدولية ص ١٩١، ١٩٢ .
- ٢٠- الموسوعة العربية العالمية.
- ٢١- انكارتا <http://encarta.msn.com>
- ٢٢- المرجع السابق.
- ٢٣- ويكيبيديا <http://en.wikipedia.org>

- ٢٤ - الموسوعة العربية العالمية.
- ٢٥ - روجيه جارودي، أمريكا طليعة الانحطاط، دار الشروق ص ٤٩ .
- ٢٦ - المطران برتولومي دي لاس كازاس، المسيحية والسيوف: وثائق إبادة هنود القارة الأمريكية، منشورات المعهد الدولي للدراسات الإنسانية ص ٢٦.
- ٢٧ - المرجع السابق ص ٢٧ .
- ٢٨ - المرجع السابق ص ٢٨ .
- ٢٩ - المرجع السابق ص ٦١ .
- ٣٠ - ترفيتان تودوروف، فتح أمريكا مسألة الآخر، دار العالم الثالث ص ١٦٤ .
- ٣١ - منير العكش، أمريكا والكنعانيون الأحمر، نسخة إلكترونية على الإنترنت. وللكاتب مجموعة من الكتب والدراسات القيمة، تكشف المخفي من تاريخ إبادة الهنود على يد المستعمرين الأوروبيين.
- ٣٢ - المرجع السابق ص ٦٢ و ٦٤.
- ٣٣ - ترفيتان تودوروف، فتح أمريكا مسألة الآخر، دار العالم الثالث ص ١٥٥ .
- ٣٤ - الموسوعة العربية العالمية .
- ٣٥ - د. باسم خفاجي، تشيني وهواية القتل ١٤ فبراير ٢٠٠٦م، القاهرة.
- ٣٦ - د. عبد الوهاب المسيري، دفاع عن الإنسان، دار الشروق، الطبعة الأولى ص ١٧٩ .
- ٣٧ - المرجع السابق ص ١٧٩ .
- ٣٨ - روجيه جارودي، أمريكا طليعة الانحطاط، دار الشروق ص ١٤٢ .
- ٣٩ - المرجع السابق ص ٩٨ .
- ٤٠ - ابن قيم الجوزية، زاد المعاد، الجزء الثالث، فصل غزوة مؤتة.
- ٤١ - محمود شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، طبعة دار الهلال، ص ٣٣.
- ٤٢ - د. حسن حبشي، تاريخ العالم الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ٢٠٧ .
- ٤٣ - د. عبد الرحمن بدوي، دفاع عن محمد، الدار العالمية للكتب والنشر ص ٣ .
- ٤٤ - المرجع السابق ص ٥ و ٦ .
- ٤٥ - د. محمد عباس، بل هي حرب على الإسلام، مدبولي ص ٢٧٨ .
- ٤٦ - د. صلاح الصاوي، من الجوانب الفقهية في علاقة الإسلام بالغرب، ورقة مقدمة لمؤتمر «نحن والآخر»، عقد بالكويت ٢٠٠٦ ص ٤ .
- ٤٧ - الموسوعة العربية العالمية .
- ٤٨ - د. عبد الحليم محمود، التفكير الفلسفي في الإسلام ص ١٦٤ .

- ٤٩ - الموسوعة العربية العالمية .
- ٥٠ - محمود شاكر، رسالة في الطريق إلى ثقافتنا، دار الهلال، ص ٣٦.
- ٥١ - د. زينب عبد العزيز، الديني والسياسي في التعامل الغربي مع القرآن، الشعب الإلكترونية ١٣ يناير ٢٠٠٦.
- ٥٢ - روجيه جارودي، حفارو القبور، دار الشروق ص ٢٢ و ٢٣ .
- ٥٣ - د. محمد عمارة، الجديد في المخطط الغربي تجاه المسلمين، دار الوفاء .
- ٥٤ - المرجع السابق.
- ٥٥ - محمد قطب، واقعنا المعاصر، دار الشروق، ص ١٦١ .
- ٥٦ - بيان أصدره معهد القيم الأمريكية في نيويورك، وقع عليه ستون مثقفاً أمريكياً، يمثلون أطياف عديدة من المجتمع الأمريكي؛ أيدوا فيه الحرب وأعطوها صفة العدالة. من الموقعين صامويل هانتنجتون، وفرانيس فوكوياما .
- ٥٧ - المرجع السابق.
- ٥٨ - المرجع السابق.
- ٥٩ - صدر البيان في أبريل ٢٠٠٢، وقع عليه ١٧٥ من علماء وأساتذة الجامعات والشخصيات العامة في المملكة السعودية.
- ٦٠ - عادل حسين، الإسلام دين وحضارة.
- ٦١ - كليفورد لونجلي، الشعب المختار: الأسطورة التي شكلت إنجلترا وأمريكا، الشروق الدولية ص ١٨ .
- ٦٢ - رضا هلال، المسيح اليهودي ونهاية العالم، الشروق الدولية، الطبعة الثالثة ص ٦٥ .
- ٦٣ - المرجع السابق ص ٦٦ .
- ٦٤ - غريس هالسل، يد الله: لماذا تضحي الولايات المتحدة بمصالحها من أجل إسرائيل، دار الشروق ص ١١١ .

رقم الإيداع